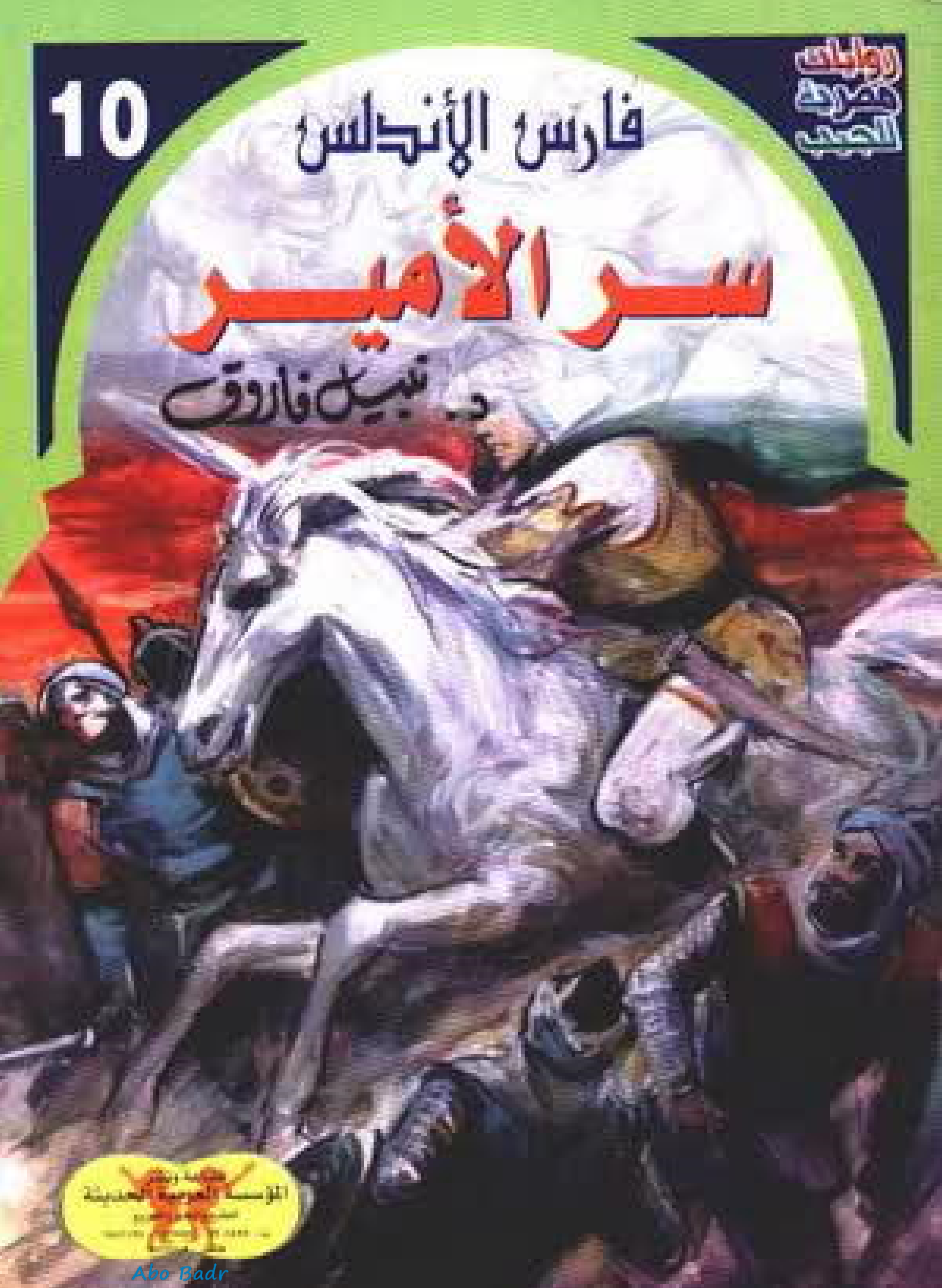


روايات مصرية للجيب
10
فارس الأندلس
سر الأمير
د. نبيل فاروق
المؤسسة العربية الحديثة
Abo Badr

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ خيانة ..

انطلقت حوافر الجياد القوية تنهب الأرض نهبًا ، وهى تتجه نحو الشمال ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الشمس رحلتها اليومية ، وبرزت بقرصها الأحمر الكبير من خلف تلال (الأندلس) الخضراء الوارفة ، لتلقى خيوطها الذهبية فى مساحة واسعة ، مخترقة تلك السحب القليلة ، التى تسبح وسط سماء صافية ، توحى بنهار مشرق جميل ..

ولكن فرسان الجياد لم ينتبهوا إلى هذا المشهد البديع ، أو لم يبالوا به ، وهم ينطلقون على صهوات جيادهم ، ووجوههم تحمل توترًا واضحًا ، وعيونهم تتلفّت حولهم فى عصبية ، وكأنما يخشون أن تفضحهم الشمس ، وتكشف المهمة ، التى خرجوا من أجلها ، فى الهزيع الأخير من الليل ..

ومن بعيد ، وفوق تبة خضراء محدودة ، بدا فريق

آخر من الفرسان ، يقف بجياده هادئًا صامتًا ، يترقّب وصول الفريق الأوّل ..

كان كل أفراد ذلك الفريق الرابض يرتدون ثيابًا عربية أندلسية ..

ولكن ملامحهم لم تكن تشفّ عن هذا قط ..

كانت ملامح أجنبية .. قشتالية .. صارمة ..

ومع اقتراب الفريق الآخر ، هتف أحد أفراده ، والتوتر يطلّ من كل ذرة فى ملامحه وكيانه :

- ها هم أولاء يا مولاى الأمير .

انعقد حاجبا ذلك الأمير الشاب ، الذى توحى هيئته وملامحه بأنه لم يتجاوز العشرين من عمره بعد ، على الرغم من الشارب واللحية الصغيرة القصيرة ، اللذين يحيطان بفمه الدقيق ، وهو يغمغم فى عصبية :

- لقد رأيتهم .

لم يتبادل الفرسان حرفًا آخر ، حتى وصل فريقهم إلى

تلك التبة الخضراء ، حيث ينتظرهم الفريق الآخر ، الذى استقبلهم قائده ، قائلاً فى شىء من الصرامة :

ـ تأخرتم أيها الأندلسيون .

لهث الأمير الشاب ، من فرط التوتر والانفعال ، وهو يقول :

ـ لقاؤكم هنا لم يكن سهلاً أيها القشتالى .. لقد بذلنا جهدًا حقيقيًا ؛ لنتسلل إلى هنا ، دون أن يلمحنا رجال (ابن الأحمر) .

مال القشتالى الضخم نحوه ، يسأله فى اهتمام :

ـ وهل نجح هذا ؟!

زفر الأمير الشاب فى توتر حقيقى ، وهو يقول :

ـ ها نحن أولاء أمامك هنا .

تألقت عينا القشتالى الضخم ، وهو يتراجع على جواده ، قائلاً :

ـ عظيم .. عظيم .

لم يفهم الأندلسيون ما الذى أسعده إلى هذا الحد ، ولكن أحدهم قال فى عصبية :

- دعونا لانضيع الوقت ، فلقد أشرقت الشمس بالفعل ، والخطر سيقترب منا فى كل لحظة .

زمجر القشتالى ، قائلاً :

- فليكن .. قدموا عرضكم .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يقول الأمير الشاب :

- لقد أبلغناكم إياه بالفعل ، وأنتم هنا لمناقشته ، وليس لسماعه من البداية .

هزَّ القشتالى كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً فى شىء من الصرامة :

- أريد أن أسمعه منكم شخصيًا .

تبادل الرجال نظرة متوترة أخرى ، قبل أن يقول الأمير الشاب فى حدة :

ـ ما معنى هذا بالضبط ؟

أشار إليه أحد رفيقيه بالصمت ، وتنحنح بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ مولاى الأمير ، يعلم أنكم متفوقون على قوات الأمير (ابن الأحمر) ، فى العدد والعدة والعتاد ، وأنكم تترتبون لشن هجوم شامل على مملكـة (غرناطـة) ؛ لاحتـلال كامل (الأندلس) ، وفرض سيطرتكم التامة عليها .

غمغم القشتالى الضخم فى حذر :

ـ دعنا نفترض هذا .

مال الرجل نحوه ، قائلاً فى خبث :

ـ مولاى يعلم أيضًا أن هذا لن يكون بالأمر السهل .

صمت القشتالى الضخم بضع لحظات ، فى حذر أكثر ، قبل أن يقول :

ـ لاشىء يأتى دون مصاعب وعقبات .

ابتسم الرجل ، فى خبث أكثر ، وهو يقول :

- لن تكون مجرّد مصاعب وعقبات يا رجل .. جيشكم سيواجه مقاومة رهيبة هنا ، فى ظلّ قيادة الأمير (ابن الأحمر) ، فهو رجل قوى مهلب ، والكل يحبه ويجلُه ، وإذا ما ارتفع سيفه فى وجوهكم ، فسترتفع معه سيوف (غرناطة) كلها ، وسيبذل كل فارس هنا حياته نفسها ، دون أدنى تردّد ، خلف (ابن الأحمر) ، و ...

قاطعه القشتالى الضخم بصوت غاضب جاف :

- فليكن .. لقد عبّرت عن وجهة نظرك .. أكمل عرضك فحسب .

تراجع الرجل على متن جواده ، وتبادل نظرة أخرى مع رفيقه ، وذلك الأمير الشاب ، قبل أن يتنحنح ، ويقول فى حزم :

- إننا نعرض عليكم رأس الأمير (ابن الأحمر) .

وعلى الرغم من أن القشتالى الضخم كان يعرف طبيعة العرض جيّدًا ، قبل حتى أن يعبر بجنوده حدود مملكة غرناطة ، إلا أنه لم يستطع منع تلك الانتفاضة ، التى سرت فى جسده ، وهو يحدّق فى الأندلسى ، الذى تبادل

مع أميره نظرة واثقة ، قبل أن يقول هذا الأخير في صرامة عصبية :

- ولكن بشروط .

ابتسم القشتالى الضخم فى شراسة ، وهو يقول :

- بالطبع .. أن نكتفى بهذا ، ونُبقى عليك ، وعلى ضيعتك وكل ممتلكاتك ، عندما ندخل غرناطة .. أليس كذلك ؟!

قال الأمير الشاب فى حدة :

- أريد عقدًا مضمونًا بهذا .

أطلق القشتالى ضحكة ساخرة قصيرة ، وهو يهتف مستنكرًا :

- عقد ؟!

ثم عاد يميل نحو الأمير الشاب ، مضيفًا فى سخرية :

- وهل ستوقّع على عقد ، يتضمّن تسليمكم رأس الأمير (ابن الأحمر) لنا ، مقابل الحفاظ على أموالك وممتلكاتك ؟!

احتقن وجه الأمير الشاب ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أريد دليلاً على صدق نواياكم .

تراجع القشتالى ، قائلاً فى صرامة :

ـ ليس لدى أى مانع من توقيع ذلك العقد .

تبادل الأندلسيون الثلاثة نظرة متوترة ، قبل أن يقول أحدهم ، وهو يخرج من بين طيات ثيابه ورقة ملتفة ، ومحاطة بشريط من الجلد :

ـ لقد أعددنا كل شىء .

وبابتسامة ملؤها السخرية والاستهتار ، التقط القشتالى منهم ريشة أنيقة ، طلى طرفها بالذهب ، وغمسها فى محبرة حملها أحد رجال الأمير الشاب ، ثم ذيَّل العقد بتوقيعه ..

عقد الخيانة ..

* * *

« يا للسخافة ! »

مطّ الملك (فرناندو) شفتيه فى ازدراء ، وهو يلقى كلمته هذه ، قبل أن يلوّح بالكأس الفارغة فى يده ، مستطردًا :

ـ عقد ؟! عقد للتخلُّص من أميرهم ؟! أى ساذج يقدم على أمر كهذا ؟! ألا يدرك أن وجود عقد كهذا بحوزته ، يكفى لقطع عنقه بلا رحمة .

أطلق القشتالى الضخم ضحكة ساخرة قصيرة ، بترها فى سرعة ، عندما انتبه إلى أن هذا يتجاوز حدود اللياقة فى وجود مولاه الملك ، فتنحنح فى حرج متوتر ، وهو يقول :

ـ دعهم يقطعونها يا مولاى .

ثم مال نحو الملك ، مضيفًا بابتسامة خبيثة :

ـ بعد أن يسلمونا رأس أميرهم .

ملأ الملك كأسه مرة أخرى ، وهو يفكّر فى عمق ، قبل أن يسأل فى اهتمام ، وهو يرتشف رشفة منها :

- قل لى يا (فرانشسكو) .. هل تعتقد أن الظفر بأميرهم يكفى لهزيمتهم ؟!

شدّ (فرانشسكو) قامته، كأى قائد عسكرى قشتالى وأجاب فى حزم:

- ليس وحده يا مولاى .. الظفر بأميرهم لن يحطِّم مقاومتهم تمامًا، ولكنه سيضعفها كثيرًا، بالإضافة إلى حالة الارتباك، التى ستحيق بهم، والتى ينبغى أن نستغلها، لنضرب ضربتنا بمنتهى السرعة .. والقوة.

ارتشف الملك رشفة أخرى من كأسه، وهو يسأل:

- وكيف سيمنحوننا عنقه ؟!

أجابه (فرانشسكو) فى سرعة:

- بعد ثلاثة أيام من الآن، سيخرج الأمير (ابن الأحمر)، فى رحلة صيد، مع أمرائه وقادته، كمحاولة لإحياء تلك التقاليد القديمة، التى ترتبط فى الأذهان بزمن قوتهم وتاريخ فرسانهم .. وفى رحلة كهذه يحاط الأمير بحراسه وقادة جيشه الأقوياء، ولكن كل

هؤلاء يتحفزون طوال الوقت ، لحماية الجميع من أى هجوم خارجى ، ولن يتصوَّر أحدهم لحظة واحدة ، أن الضربة ستأتى من الداخل .

انعقد حاجبا الملك ، وهو يسأله :

- هل سيقومون هم بالمهمة ؟!

قال (فرانشسكو) فى حذر :

- يقولون إن باستطاعتهم هذا .

ارتشف الملك رشفة أخيرة من كأسه ، وهو يقول فى صرامة :

- وهل سنثق بقولهم هذا ؟!

سرت موجة من التوتر ، فى جسد القشتالى ، وعجز لسانه عن النطق بأى جواب ، خشية أن يزعج أو يغضب مولاه (فرناندو) ، الذى تابع ، وكأنه لاينتظر جوابًا :

- لابد أن نقوم بالعمل بأنفسنا .

تساءل (فرانشسكو) فى حذر زائد :

- وكيف ؟!

انعقد حاجبا الملك بشدة ، وهو يصب لنفسه كأسًا مزدوجة هذه المرة ، وراح يدور بها فى الحجرة ، بتفكير عميق ، بدا من الواضح أنه يلتهم كيانه كله ، مما جعل القشتالى الضخم يلزم الصمت ، ويكتفى بمتابعة مولاه فى لهفة حذرة قلقة ، والملك يجلس على مقعده الضخم ، المواجه للشرفة الكبيرة ، و ...

« ماذا يحدث هنا ؟! »

اقتحمت الملكة (إيزابيلا) حجرة الملك (فرناندو) فى حدة ، وهى تهتف بالسؤال ، فارتبك القشتالى الضخم ، لهذا الاقتحام المباغت ، وأسرع ينحنى ، هاتفًا بكل اضطرابه وحماسته :

- مولاتى .

أما الملك نفسه ، فقد واصل ارتشاف محتويات كأسه فى هدوء ، وكأنما اعتاد هذا ، وهو يقول فى لامبالاة :

- مرحبًا يا عزيزتى .. كنت أتوقع حضورك فى أية لحظة .

كرَّرت سؤالها فى عصبية :

- ماذا يحدث هنا ؟!

أجابها الملك فى هدوء :

- لاشىء يا عزيزتى .. إننا نناقش بعض شئون صراعنا مع هؤلاء العرب .

قالت فى حدة :

- شئون الحكم لاتناقش فى حجرات النوم أيها الملك ، إلا إذا كانت تنطوى على دسائس ومؤامرات .

قال فى لهجة تحمل رنة ساخرة ، على الرغم من غضبها :

- أو أسرار .

قالت فى عصبية أكثر :

- الأسرار تحتاج إلى وجود الملك والملكة معًا ، فأنا لست خليلة فراش .. إننى (إيزابيلا) .

ورفعت رأسها فى اعتداد ، مضيفة :

- ملكة (قشتالة) و(ليون) .

انتقلت السخرية من لهجته إلى شفتيه ، وهو يقول :

- بالتأكيد يا ملكة (قشتالة) و(ليون) .. بالتأكيد .

ثم استدار إلى القشتالى الضخم ، متابعًا ، وكأنها لم تقاطعهما منذ لحظات :

- صحيح أن الأندلسيين قد عرضوا علينا رأس أميرهم ، ولكننى أصرّ على ألا نعتمد عليهم ، فى القيام بهذه المهمة الخطيرة .

اتسعت عينا الملكة (إيزابيلا) فى ذهول ، وهى تهتف :

- عرضوا رأس أميرهم ؟!

تجاهلها (فرناندو) تمامًا ، وهو يكمل :

- ثم لماذا نكتفى باغتيال أميرهم فحسب ؟! لماذا لانستغل لحظات توترهم واضطرابهم ، ونضرب ضربتنا ؟!

برقت عينا (فرانشسكو) ، وهو يقول :

- فكرة رائعة يا مولاى ، ولكنها تحتاج إلى إعداد دقيق .

أشار إليه الملك ، قائلاً فى صرامة :

- هذه مهمتك .

ثم أضاف فى سرعة ، وعلامات التفكير ترسم نفسها مرة أخرى على وجهه فى وضوح :

- وهذا يجعلنا بحاجة إلى واحد من رجالنا المخلصين ، للتسلل وسط صفوف الأندلسيين ، بمعاونة من عرضوا علينا المساعدة منهم .. نحتاج إلى شاب جرىء قوى ، يجيد العربية بلهجتها الأندلسية ، ويحمل وجهًا أندلسيًا ، وقلبًا لا يعرف الخوف إليه سبيلاً ، و ...

قاطعه (فرانشسكو) فى لهفة ، وبصوت أشبه بالفحيح :

- (روشيلو) .. الفارس (روشيلو) يا مولاى .

انعقد حاجبا الملك الكثين ، وهو يرمقه بنظرة نارية ، مكررًا :

- الفارس (روشيلو) ؟! كنت أظنك تبغضه كثيرًا يا (فرانشسكو) !

هزَّ (فرانشسكو) كتفيه ، قائلاً :

- عندما يتعلق الأمر بمصير ونصر (قشتالة) ، لامجال للمشاعر الشخصية يا مولاى .

غمغمت (إيزابيلا) فى سخرية :

- يا للحكمة !

ألقى عليها (فرناندو) نظرة عصبية ، قبل أن يلتفت إلى (فرانشسكو) قائلاً بلهجة حازمة ، صارمة ، آمرة :

- أبلغه بالمهمة إذن ، وأخبره أن مولاه (فرناندو) يريد رأس (ابن الأحمر) على طبق من ذهب .

قالت (إيزابيلا) فى عناد :

- ومولاته (إيزابيلا) تريد هذا أيضًا .

انحنى أمامهما (فرانشسكو) ، قائلاً :

- أمر مولاى .. أمر مولاتى .

رمقته (إيزابيلا) بنظرة ساخرة ، قبل أن تمد يدها إليه ، قائلة فى تعال معتاد :

- هيا .. اصحبنى إلى الخارج ، فلابد أن يحصل مولاك على قسط من الراحة ، بعد هذا الجهد الذى بذله ، لتدبير شئون الحكم .

ارتبك القشتالى الضخم ، وألقى نظرة على مولاه ، وكأنما يسأله الرأى ، فأومأ الملك برأسه موافقًا ، فى غضب واضح ، لم يحمل صوته ذرة واحدة منه ، وهو يشير بكأسه ، قائلاً :

- هذا صحيح يا مولاتى .. الملك بحاجة إلى الراحة .

التقط القشتالى الضخم يد الملكة ، وقادها خارج جناح الملك ، وما إن أصبحا خارجه ، حتى أضاف (فرناندو) فى حنق ساخط :

- منك .

ثم جرع ما تبقى من كأسه دفعة واحدة .

وفى نفس اللحظة التى فعل فيها هذا ، كانت الملكة تقول لـ (فرانشسكو) فى صرامة هادئة :

- مصير (قشتالة) و(ليون) لايحتمل العبث أيها الفارس .

سألها القشتالى فى قلق حذر :

- بالتأكيد يا مولاتى .

مالت نحوه ، قائلة :

- وتدبير خدعة للقضاء على فارس ، خرج فى مهمة من أجل (قشتالة) و(ليون) يعد خيانة ، جزاؤها الوحيد هو الموت .. وبلارحمة ..

انعقد حاجباه بشدة ، وهو يغمغم :

- اطمئننى يا مولاتى .

انتزعت يدها من بين أصابعه ، ورفعت رأسها فى خيلاء ، وهى تبتعد عنه ، فتابعها ببصره لحظة ، قبل أن يضيف فى مقت واضح :

- لن أقضى عليه ، إلا بعد أن ينتهى من مهمته .

نطقها بلهجة ذات رائحة قذرة ..

رائحة الخيانة ..

* * *

صهل الجواد (رفيق) فى قوة ، وهو يثب بفارسه ، عبر حاجز خشبى مرتفع ، ولم يكد يعبره ، حتى جذب (فارس) معرفته إلى اليسار ، وهو يضمّ فخذيه عليه فى قوة ، فمال الجواد الأصيل فى سرعة ، ثم عاد يثب عبر حاجز آخر ، فى نفس اللحظة التى هتف فيها قائد الفرسان السابق (مهاب) :

- الآن يا (فارس) .. الآن ..

وقبل حتى أن يتم عبارته ، أو يكمل الجواد وثبته ، قفز (فارس) عن متنه ، ليتعلّق بفرع شجرة قوى ، ثم يثب منه إلى الأرض ، ويستلّ سيفه ، ليهوى به على ثلاثة أعمدة مغروسة فى الأرض ، فيطيح برءوسها ، قبل أن يعيد سيفه إلى غمده ، ثم يلتقط قوسه ، وسهمًا

من جعبته ، ويطلق الأخير نحو ثمرة فاكهة ، مثبتة فوق عمود خشبى آخر ، على مسافة عشرة أمتار ، اخترقها السهم ، عند منتصفها تمامًا ، وانتزعها من مكانها ، قبل أن ينغرس فى جذع شجرة ضخمة ، على مسافة ثلاثة أمتار أخرى ..

« رائع يا ولدى .. »

ابتسم الشيخ ، وهو يغمغم بالعبارة ، فى زهو وارتياح ، ولكن (مهاب) هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً فى صرامة :

- ليس إلى هذا الحد ..

اتسعت ابتسامة الشيخ ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً فى هدوء رصين :

- رويدك يا (مهاب) .. الفتى أبلى بلاءً حسنًا بحق .

هزّ (مهاب) رأسه فى قوة أكثر ، قائلاً :

- ليس بالسرعة المطلوبة .

اتجه نحوهما (فارس) ، وهو يقول :

- أوافقك القول يا معلمى .. إننى لم أقم بالمطلوب ، فى الوقت المناسب .

تطلّع إليه الشيخ فى حنان ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين قال (مهاب) بصرامته المعهودة :

- ما فعلته الآن يعدّ فائقًا ، بالنسبة لأى فارس أندلسى ، تدرَّب على يد (مهاب) ، ولكننا هنا لسنا فى مجال مفاضلة مع فرسان (الأندلس) ، ولكننا نبحث عن التفوّق المطلق .. لاتنس أنك قد صرت اليوم رمزًا لبقاء (الأندلس) ، وأسطورة فى مملكة (غرناطة) ، وحتى فى (قرطبة) نفسها ، ولكل أسطورة عشرات الأعداء ، الذين يستهدفونها طوال الوقت ، ويسعون لتحطيمها ، وتدمير كل ما تحمله أو تعنيه ، أو ترمز إليه .

أومأ الشيخ برأسه ، قائلاً فى رصانة :

- هذا صحيح يا ولدى .. المؤسف أن هؤلاء الأعداء ليسوا قشتاليين فحسب ، ولكن منهم الأندلسيون أيضًا ،

ولكى تظلّ رمزًا لصمود وبقاء (الأندلس) ، لا بـد أن تصارع وتقاتل طوال الوقت ، للحفاظ على القمة .

قال (فارس) فى حزم :

ـ حياتى فداء لدين (الأندلس) يا سيِّدى .

عاد الشيخ يبتسم ، وهو يقول :

ـ الدِّين للَّه ياولدى ، ودين (الأندلس) هو دين كـل عربى ، و ...

بتر الشـيخ عبارتـه بغتـة ، وانعقد حاجبـاه الكثين الأشيبين ، وهو يرمى ببصره بعيدًا ، فاستدار (مهـاب) و(فهد) إلى حيث ينظر ، وانعقد حاجبا الأخـير ، فـى حين غمغم الأوّل و(فارس) .

فى لهجة حملت شيئًا من التوتر :

ـ آه .. (فهد) ..

كان الزنجى العملاق ينطلق نحوهم ، على صهوة جواده الأدهم ، مثيرًا خلفه عاصفة من الغبـار ، وقد

تعلقت به أنظار ثلاثتهم ، حتى بلغ مجلسهم ، فوثب عن جواده ، قبل حتى أن يوقفه ، وانحنى أمامهم فى احترام ، فربَّت الشيخ على رأسه ، قائلاً فى هدوء رصين :

- مرحبًا يا ولدى .

نهض (فهد) واقفًا ، مشدود القامة ، قوى الصدر ، صارم الملامح ، وتطلَّع إلى الشيخ فى صمت ، بدا وكأنه يحمل ألف معنى ومعنى ، فمدّ الشيخ يده إليه ، قائلاً :

- ساعدنى يا ولدى .

التقط (فهد) يده ، وعاونه على النهوض ، ثم اتجه كلاهما إلى خيمة الشيخ ، فهمس (فارس) فى انفعال :

- أراهن على أنه يحمل أخبارًا جديدة .

غمغم (مهاب) ، وبصره معلَّق بخيمة الشيخ :

- (فهد) لا يأتى إلا بأخبار جديدة .

سأله (فارس) فى لهفة :

- وأين يذهب باقى الوقت ؟!



كان الزنجي العملاق ينطلق نحوهم ، على صهوة جواده الأدهم ، مثيرًا خلفه عاصفة من الغبار ، وقد تعلّقت به أنظار ثلاثتهم ..

هزّ (مهاب) رأسه ، قائلاً :

- اللّه (سبحانه وتعالى) أعلم ..

ثم استدرك ، فى شىء من التوتر :

- والشيخ أيضًا .

هزّ (فارس) كتفيه ، وابتسم ، قائلاً :

- أحيانًا يُخيّل إلىّ أن (فهد) يتواجد ، فى كل مكان فى الأندلس) ، طوال الوقت .

غمغم (مهاب) :

- إنه كذلك تقريبًا .

صمت (فارس) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى اهتمام :

- تُرى لماذا جاء هذه المرة ؟!

أجابه (مهاب) فى حزم :

- دقائق ونعلم كل شىء .

مع آخر حروف عبارته ، اندفع (فهد) خارج الخيمة كالسهم ، ووثب على متن جواده الأسود ، ثم جذب

معرفته ، وهو يلكزه بركبتيه فى بطنه بقـوة ، فـأطلق الجواد صهيلاً قويًا ، ثم انطلق يعدو براكبه مبتعدًا ..

ومع ابتعاده ، غـادر الشيخ خيمتـه ، وبـدا مهمومًا على نحو عجيب ، وهو يقول :

- (فارس) .. (مهاب) .

اندفعا نحوه فى آن واحد ، هاتفين :

- لبيك يا مولاى .

التقى حاجبـاه الأشيبين الكثين ، وهو يجيبهما فى توتر حزين :

- يبدو أن أمامكما مهمة جديدة .. مهمة عاجلة .. وخطيرة .. خطيرة بكل المقاييس .

وكانت عبارته الأخيرة تقطر حزنًا ..

ومرارة ..

وخوفًا .

* * *

٢ ـ الفرسان ..

انتفخت أوداج أمراء وفرسان (الأندلس)، فى ارتياح وزهو، وهم يديرون أعينهم فى تلك الدغل الرائع، الذى توقّفت عنده قافلة الأمير (ابن الأحمر) لبدء رحلة الصيد، التى رتبها الأمير فى هذا التوقيت بالذات، كوسيلة لجمع أمرائه وفرسانه وقادته، وإزالة كل خلاف نشأ بينهم، خلال الأعوام الأخيرة، وتوفيق مشاعرهم وأهدافهم، وتنسيق التعاون بين كل منهم والآخر، استعدادًا للمرحلة القادمة، التى يواجه فيها (الأندلس) خطر جيوش (قشتالة) و(ليون)..

كان تقليدًا قديمًا، سقط مع سقوط (قرطبة)، وانشغال الجميع بصد الهجمات القشتالية المتكرِّرة..

وإحياؤه أحيا الكثير فى أعماق الكل، وهذا ما تدلّ عليه تلك الوجوه المشرقة، والعيون المملوءة بالحماسة

والقوة والحسم ، وما يشف عنه صهيل الجياد ، التى انتقلت إليها نشوة راكبيها ، فراحت تضرب الأرض بحوافرها ، وتنفخ الهواء الملتهب من مناخيرها فى قوة ونشاط ..

وعند خيمة الأمير (ابن الأحمر) ، قال قائد فرسانه ، ورئيس حراسه ، وهو يشير بيديه إلى ما حوله :

ـ معذرة يا مولاى ، ولكن مهمة حمايتكم هنا ليست بالأمر الهيّن .. صحيح أن أقوى فرساننا وأشجعهم يحيطون بكم ، وسيوفهم مشهورة لحمايتكم ، ولكن ما الذى يمنع القشتاليين من شن هجوم خاطف علينا .

ابتسم (ابن الأحمر) ، وهو يقول فى هدوء :

ـ لو أنك وزعت رجال المراقبة حولنا ، كما شرحت لك سيكون من العسير أن يباغتنا القشتاليون ، بأى حال من الأحوال .

ثم مال نحوه ، مستطردًا بابتسامة أكبر :

ـ نحن فى أمان يا رجل .. نحن وسط أهلنا .

صمت قائد الفرسان بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يجد فى نفسه الشجاعة ، ليقول :

ـ لو أننا كذلك ، لما كان هذا حالنا يا مولاى .

حدَّق الأمير (ابن الأحمر) فى وجهه لحظةً بدهشة ، وكأنما صدمته العبارة ، ثم لم يلبث أن قطب جبينه ، وهزَّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ صدقت .

ثم أشار بيده إلى الرجل ، مستطردًا فى شىء من الأسى ، وهو يشيح عنه بوجهه :

ـ اتخذ كل الإجراءات اللازمة ؛ لحماية الجميع هنا .

وعاد يستدير إليه ، مستطردًا فى حزم صارم :

ـ هل سمعتنى جيدًا ؟! الجميع .

انحنى قائد الفرسان أمامه ، قائلاً :

ـ أمر مولاى .

ثم استدار منصرفًا فى حزم ، فتنهَّد الأمير فى مرارة ، مكررًا :

ـ صدقت يا رجل .. صدقت للأسف !

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته هذه ، كان الأمير الشاب ومعاونوه يبتعدون عن معسكر (ابن الأحمر) ، ويجولون بجيادهم فى المنطقة ، وأحدهم يتلفت حوله ، قائلاً فى عصبية :

ـ أين هم ؟! لقد أكدوا أنهم سيلتقون بنا هنا .

أجابه الأمير الشاب فى عصبية ، كشفت محاولته للتظاهر بالتماسك :

ـ سيأتون .

ثم استدرك فى لهجة حملت قدرًا مخيفًا من التوتر :

ـ لقد وعدوا .

عاد أربعتهم يتلفتون حولهم فى توتر بالغ ، وغلفهم صمت مطبق لبعض الوقت ، قبل أن يقول أحدهم ، فى اضطراب واضح :

ـ لو انكشف أمرنا هنا ستكون نهايتنا .

صاح به الأمير الشاب :

- اصمت .

لم تكد صيحته تتجاوز شفتيه ، حتى برز من خلف الأشجار ثلاثة فرسان ، فى ثياب عربية أندلسية ، واتجهوا بخيولهم نحوهم مباشرة ..

وفى توتر بالغ ، لزم الأندلسيون الأربعة أماكنهم ، حتى اقترب منهم الفرسان الثلاثة ، فتبيَّنوا فى أحدهم ذلك القشتالى الضخم ، الذى وقَّع معهم عقد الخيانة ، مما جعل الأمير الشاب يقول فى عصبية زائدة :

- إننا ننتظركم منذ وقت طويل .

غمغم (فرانشسكو) فى غلظة صارمة :

- لا بأس .

ثم أدار عينيه فى وجوههم ، قبل أن يضيف بنفس الصرامة :

- مولاى ملك (قشتالة) قرَّر أن نتولَّى المهمة بأنفسنا .

سرى توتر عنيف فى الأندلسيين الأربعة ، وتبادلوا نظرات شديدة القلق ، قبل أن يهتف أحد معاونى الأمير الشاب :

ـ لم يكن هذا اتفاقنا منذ البداية .. لقد ...

قاطعه القشتالى فى صرامة أكثر :

ـ مولاى أمر بهذا .

عاد الأندلسيون الأربعة يتبادلون نظرة متوترة ، قبل أن يغمغم الأمير الشاب بنفسه :

ـ ولكن كيف ؟! الأمير (ابن الأحمر) محاط دومًا بحراسة بالغة ، وفرسانه مستعدون لبذل حياتهم ، دون ذرة واحدة من التردُّد ، فى سبيل الدفاع عنه ، ولا يمكن أن يقترب منه سوى ..

قاطعه القشتالى ، مكملاً :

ـ واحد من حاشيته .. أليس كذلك ؟!

هتف أحد مرافقى الأمير الشاب :

ـ بالتأكيد .

أشار (فرانشسكو) إلى فارسه (روشيلو)، قائلاً:

- لهذا سيعود (روشيلو) معك إلى المعسكر، باعتباره أحد معاونيك.

اتسعت عيون الرجل فى هلع، وقال أحدهم فى عصبية:

- هذا مستحيل! فرسان الأمير وضعوا نظامًا صارمًا للغاية؛ لتأمين المعسكر، ولو عدنا برجل زائد، فسوف..

قاطعه القشتالى مرة أخرى، قائلاً فى صرامة:

- لن تعودوا برجل زائد.

ثم أشار إلى أحدهم، مضيفًا بلهجة آمرة:

- أنت ستبقى معنا.

انتفض الرجل على جواده فى عنف وهتف:

- أنا ؟! ولماذا أنا بالذات ؟!

أجابه القشتالى:

- لأنك تقريهم قوامًا لفارسنا (روشيلو) .. ستتبادلان الثياب ، ويعود قومك أربعة كما ذهبوا .. وسيخفى (روشيلو) وجهه بقدر الإمكان ، ولن ينتبه فرسان أميركم إلى ما حدث .

تبادل الرجال نظرة أخرى متوترة ، ثم قال الأمير فى عصبية :

- ما تفعلونه أمر خطير للغاية :

أشار إليه القشتالى الضخم ، قائلاً :

- دع هذا لنا .. والآن هيا .. دعونا نتمّ عمليةَ التبادل ، دون أن نضيع المزيد من الوقت .

ومرة أخرى ، تبادل الأندلسيون الأربعة نظرة صامتة ، ملؤها الخوف والتوتر والقلق ، وقد تبيّنوا للمرة الأولى ، هول المستنقع ، الذى خاضوه بإرادتهم الحرة ..

مستنقع الخيانة ..

* * *

لهث (مهلب) فى قوة ، وحصانه ينهب الأرض نهبًا ، إلى جوارٍ جواد (فارس) ، وهتف بأنفاس متقطعة ، وهو يتطلع إلى الأفق ، حيث راحت الشمس تغوصٍ ، معلنة نهاية رحلتها اليومية المعتادة ، التى لم تتوقف أو تتغيَّر لحظة ، منذ مولد الكون :

- الشمس تميل إلى الغروب .. نحن والجوادان بحاجة إلى الراحة ، قبل أن نواصل رحلتنا .

هتف به (فارس) فى حزم :

- ليست لدينا لحظة واحدة نضيعها .. أميرنا يواجه خطر الموت غيلة ، على مسيرة يوم ونصف من هنا .

صاح (مهاب) وهو يلهث فى شدة :

- (فهد) يسبقنا بمسيرة نصف يوم .

هتف (فارس) :

- (فهد) لن يمكنه بلوغ الأمير (ابن الأحمر) .. لا أحد يعرف من هو ، وفرسان الأمير سيقاتلونه كالوحوش ، بافتراض أنه عدو ، يعمل لحساب القشتاليين .

صاح (مهاب) ، وأنفاسه تتقطَّع :

ـ حتى الجوادان لن يمكنهما مواصلة العدو على هذا النحو ، دون التوقُّف والراحة .

هتف (فارس) فى إصرار :

ـ حياة أميرنا فى خطر .

انعقد حاجبا (مهاب) فى شدة ، وجذب مقود جواده فى قوة ، وهو يصيح بلهجة آمرة صارمة :

ـ قف .

توقَّف جواده الأشهب ، وهو يُطلق صهيلاً عاليًا ، جعل (فارس) يجذب معرفة جواده (رفيق) بدوره ، ويستدير إليه ، متسائلاً فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

كان (مهاب) يلهث بمنتهى العنف ، وعلى الرغم من هذا فقد قال بكل صرامته ، التى اكتسبها من ماضيه كقائد لفرسان أمير (قرطبة) :

ـ أهذا ما علمتك إياه !

بدت حيرة متوترة على وجه (فارس)، وهو يقول فى عصبية :

- ماذا حدث بالضبط ؟! إننى أسعى لإنقاذ أميرنا، من محاولة اغتيال وضيعة حقيرة، قد تؤدى إلى ضياع مملكة (غرناطة) كلها، فما الذى يغضبك فى هذا ؟!

صاح به (مهاب) :

- وهل ستنقذه بحماقتك هذه ؟!

انتفض جسد (فارس)، وهو يهتف بدهشة مستنكرة :

- حماقتى ؟!

صاح (مهاب) فى غضب :

- بالطبع .. إصرارك على عدم التوقف هو ذروة الحماقة والسخافة ! هل تتصورَّ أنك ستعدو ليوم ونصف، بلاتوقُّف أو انقطاع، ثم ستجد فى نفسك القوة بعدها، للذود عن أمير البلاد ؟!

هتف (فارس) معترضًا :

- ولكن يا معلمى ..

قاطعه (مهاب) بنفس الغضب :

ـ ألم أعلمك من قبل أن الجواد المنهك ، لايمكنه أن يقفز عبر حاجز مرتفع ؟! ألم ألقنك أن المقاتل بلا عقل ، كالسيف بلا نصل ؟! هل تعتقد أن التوقف للراحة والتقاط الأنفاس هو مضيعة للوقت ؟! خطأ يا تلميذى النجيب .. خطأ ألف خطأ .. عدم التوقُّف هو استهلاك للجسد والعقل والروح معًا .

قال (فارس) فى عصبية :

ـ ماذا لو تأخرنا ساعة ، اغتالوا خلالها مولانا الأمير (ابن الأحمر) ؟!

أجابه (مهاب) فى صرامة :

ـ وماذا لو أنهم يغتالونه بالفعل الآن ، وبيننا وبينهم مسيرة يوم ونصف اليوم ؟!

حدَّق فيه (فارس) لحظة ، ثم لم يلبث أن خفض عينيه ، متمتمًا :

ـ أنت على حق يا معلمى .

ثم عاد يرفع عينيه ، مستدركًا فى سرعة وحزم :

- ولكننا سنستريح حتى يتوسّط القمر السماء فحسب ، ونعاود بعدها الانطلاق .

ابتسم (مهاب) ، وهو يلهث ، قائلاً :

- اتفقنا .

وأطلق (رفيق) صهيلاً خافتًا ، عندما هبط (فارس) عن صهوته ، وكأنما يعلنهما موافقته ..

وبلا شروط ..

* * *

تململ الأندلسى فوق جواده فى عصبية ، بعد انصراف الآخرين ، وقال :

- لن يفلح هذا .

أجابه القشتالى الضخم فى صرامة :

- ابتلع لسانك يا هذا ، وإلا لانتزعته من حلقك .

استدار إليه الأندلسى ، هاتفًا فى حدة :

ـ شخص ما سيعلم حتمًا .

ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتى (فرانشسكو) ، وهو يقول بلهجة عجيبة :

ـ مولاى توقَّع أن يصل الخبر إلى شخص بعينه .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف باللهجة ذاتها :

ـ ولقد اتخذ كل الاحتياطات ، لمنعه من القيام بأى إجراء ؛ لمنع ما سنفعله بأميركم .

تساءل الأندلسى فى لهفة :

ـ شخص ؟! أى شخص ؟!

شرد (فرانشسكو) ببصره ، وهو يجيب فى اقتضاب :

ـ فارس .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، فى لهجة تحمل كل المقت :

ـ فارس أندلسى .

حدَّق الرجل فيه بضع لحظات ، فى دهشة تمتزج بالحيرة ، قبل أن يطلّ الذعر من عينيه فجأة ، وهو يهتف :

ـ رباه ! الفارس الأبيض ؟!

استدار إليه (فرانشسكو) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ هل تعرفه ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يجيب :

ـ لم ألتق به فى حياتى قط ، ولكننى سمعت ما يرددونه ويروونه عنه .

وارتجف صوته ، مع إضافته المذعورة :

ـ وما سمعته يكفى لأدرك طبيعته وقوته .

هتف (فرانشسكو) :

ـ هراء !

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- فارسكم الأبيض هذا مجرَّد وهم .. أسطورة هزلية صنعتموها ، لتخفوا وراءها فشلكم وانقسامكم وخيبتكم .. أكذوبة أطلقتموها ، ثم صدقتموها .

قال الأندلسى فى توتر :

- وأنتم عانيتم منها كثيرًا .

قال (فرانشسكو) فى غضب :

- ولن تستمر هذه المعاناة طويلاً .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف :

- مولاى (فرناندو) وضع خطة عبقرية ، لوضع حد لكل هذه السخافات دفعة واحدة .

قال الأندلسى فى عصبية :

- وكيف يضمن أن تسير خطته على النسق الذى ينشده ؟!

استلَّ (فرانشسكو) سيفه خفية ، وهو يقول :

ـ قلت لك : إنها خطة عبقرية .. خطة تهدف إلى سحق الكل بضربة واحدة .

ثم طوّح سيفه فى عنق الأندلسى ، صائحًا بغتة :

ـ بدءًا بك .

اتسعت عينا الأندلسى فى ألم مذعور ، ورفع يده فى ارتياع إلى عنقه ، الذى تفجَّرت الدماء منه فى غزارة ، كنافورة حمراء قانية ، قبل أن يترنَّح لحظة ، ثم يهوى من فوق جواده جثة هامدة ، فابتسم (فرانشسكو) فى وحشية ، والتقط طرف حرملته ، ليمسح به الدم عن نصل سيفه ، وهو يكمل :

ـ وبعدها يأتى دور فارسكم الأبيض .

قالها ، ودسّ سيفه بحركة سريعة بارعة فى غمده ، وعيناه تبرقان فى قوة .. ووحشية ..

بلا حدود ..

* * *



ثم يهوى من فوق جواده جثة هامدة ، فابتسم (فرانشسكو) فى وحشية ، والتقط طرف حرملته ، ليمسح به الدم عن نصل سيفه ..

على الرغم من أن كل ما قاله (مهاب) كان منطقيًا وعقلانيًا للغاية ، إلا أن (فارس) لم يستطع منع ذلك التوتر الشديد ، الذى سرى فى جسده ، بل فى كل ذرة من كيانه ، وهو يرقد إلى جوار معلمه ، عاجزًا عن إغماض عينيه ، أو إقناع عقله بالاسترخاء والنوم .

إنه ما زال يشعر بالقلق ، على حياة الأمير (ابن الأحم) ..

ما زال يخشى أن تصنع دقائق قليلة فارقًا لا يمكن تعويضه ..

لماذا لم يسع الأمير إلى إقامة معسكره بالقرب من أية مدينةَ ، يمكن إرسال رسالة بالحمام الزاجل إليها ، لتحذيره من ذلك الكمين الحقير ، الذى أعدّه له القشتاليون ، بالتعاون مع أمير أندلسى خائن ؟!

يا للحقارة !

أمير أندلسى يخون قومه ، ويبيع دم أميره إلى أعدائه !

كيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

كيف ؟!

لاشك فى أنه دليل جديد على حالة الفساد والتفسُّخ، التى أصابت المجتمع الأندلسي ، والتى أدَّت إلى هزيمته واندحاره ، بعد أن أضاء (أوروبا) كلها بحضارته لأكثر من ستة قرون(*) ..

الشيخ كان يتوقَّع هذا دومًا ..

يتوقَّعه ويتنبأ به ، من مشاهداته لما يحدث فى (الأندلس) ، وذكرياته عما أدَّى إلى ضياع (قرطبة) من قبل ..

(*) فتح العرب (الأندلس) عام (٧١١ م) ، وظلَّت تحت حكمهم حتى سقوط مملكة (غرناطة) عام (١٤٩٢م) ، وخلال تلك الفترة كانت المدن الأندلسية (قرطبة) ، و(أشبيلية) ، (غرناطة) ، مراكز مشهورة للثقافة والعلم والفن ، ولقد أكد (ول ديورانت) ، فى مؤلَّفه العظيم (موسوعة الحضارة) أن تأثير (الأندلس) قد كان فتيل الحضارة لـ (أوروبا) والعالم كله ، وأن كل مشاهير الفلاسفة ، الذين يتحدَّث العالم عنهم باحترام بالغ الآن ، بنوا عظمتهم على فقرات كاملة ، استقوها من أفكار ومؤلفات الفيلسوف الأندلسى (ابن رشد) (١١٢٦ _ ١١٩٨م) .

لقد سمع هذا ألف مرة ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، ما زال عاجزًا عن تصديق ما يحدث ..

وبشدة ..

أطلق جواده (رفيق) فى تلك اللحظة ، صهيلاً عصبيًا ، فهتف به فى خفوت :

- رويدك يا (رفيق) .. (مهاب) نائم ، وهو يحتاج إلى بعض الراحة والاسترخاء ، و ...

قاطعه (رفيق) بصهيل عصبى آخر ، فاعتدل فى مجلسه ، وانعقد حاجباه ، وهو يغمغم :

- ماذا أصابك ؟! المفترض أن تحصل أنت أيضًا على قليل من الراحة .

صهل (رفيق) للمرة الثالثة ، وأضاف إلى صهيله هذه المرة ضربات عصبية للأرض بحوافره ، فهبّ (فارس) من رقاده ، قائلاً فى توتر قلق :

- رباه ! هل يمكن أن ..

قبل أن يتمّ عبارته ، برز فجأة رجال خمسة ، من دغل قريب ..

وقبل حتى أن يتحرّك من مكانه ، ودون أن يصدر عنهم أدنى صوت ، انقضَ عليه الرجال الخمسة ، وهم يشهرون سيوفهم ، بمنتهى الشراسة ..

والقوة ..

والعنف .

* * *

٣ـ رائحة الغدر..

من المؤكَّد أن انقضاضة الرجال الخمسة كانت غادرة مباغتة ..

ومن كل الاتجاهات ..

ولولا غريزة (رفيق) وصهيله، لما انتبه (فارس) إلى وجودهم، حتى أصبحت سيوفهم على عنقه ..

ولكن من سوء حظهم أنه قد انتبه إلى انقضاضتهم، فى الوقت المناسب ..

فالشىء الأكثر تأكيدًا، هو أن (فارس) قد تلقَّى من الإعداد والتدريب، ما يفوق أضعاف ما تلقاه أقرانه، الذين فى نفس عمره ..

والأهم، هو أنه قد تلقَّى كل هذا على يد (مهاب)، قائد فرسان أمير (قرطبة)، وأعظم فارس عرفته (الأندلس)، عبر تاريخها الطويل ..

ففى لحظة واحدة ، وفور بروز الرجال الخمسة من حوله ، امتشق (فارس) حسامه ، وأطلق صرخة قتالية قوية ، وهو ينقضّ كالليث على مهاجميه ..

والعجيب أنه لاصهيل (رفيق)، ولا انقضاضة الرجال ، ولاحتى صرخة (فارس) أمكنها إيقاظ (مهاب) ، الغارق فى نوم عميق ، بعد كل ما ملأ جسده من جهد وكد وتعب وإرهاق ..

ولكن ما إن التقت السيوف ، وارتفع صليلها ، حتى اخترق أذنى وعقل وكيان قائد الفرسان ، ومعلم السلاح ، فهبّ من رقاده بغتة ، ووثب واقفًا على قدميه ، وهو يختطف سيفه من جواره ، وينقضّ به على المهاجمين ، كما لو أنه يدرك وجودهم ودوافعهم منذ الأزل ..

ومع انقضاضة أسدين هصورين ، تراجع الرجال الخمسة فى خوف ، وهم يقاتلون بكل قوتهم ..

ولكن سيف (مهاب) جندل أحدهم ، فى نفس اللحظة التى أطاح فيها سيف (فارس) بالثانى ، و(رفيق) يضرب

الهواء بقائمتيه الأماميتين ، ويطلق صهيلاً قويًا ، وكأنما يعترض على عدم مشاركته القتال ..

ومع سقوط الثالث ، تراجع الرجلان المتبقيان في ذعر ، وهما يقاتلان في استماتة ، في محاولة للبقاء على قيد الحياة فحسب ..

لقد تصوروا ، كرفاقهم الثلاثة الآخرون ، أنهم سينقضون ، ويضربون ، ويقتلون ، ثم يعودون منتصرين في لحظات ..

هذا ما أخبروهم به ..

ولكن ما يحدث بالفعل أشبه بمجزرة ، هم ضحاياها ..

وبعد أن كانوا مهاجمين ، أصبحوا مدافعين ، بأدنى أمل في النجاة ..

وحسمًا لأمره ، استدار أحدهما ، وانطلق يعدو هاربًا ، فصرخ به زميله في رعب :

ـ لا .. لا تتركني وحدي .

وثب (فارس) نحوه ، فى تلك اللحظة ، وأمسك معصمه فى قوة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد تركك بالفعل .

ثم هوى على فكه بمقبض سيفه ، فألقاه أرضًا فاقد الوعى ، قبل أن يندفع نحو الهارب ، و(مهاب) يهتف خلفه :

ـ اتركه يا (فارس) .. اتركه .

ولكن (فارس) لم يتوقَّف ، وإنما زاد من سرعته ، قبل أن يثب بكل قوته ، ليرتطم بالرجل ، ويسقط معه أرضًا ..

وبكل رعبه ، حاول الرجل أن يستدير بسيفه إلى (فارس) ، إلا أنه وجد نصل سيف هذا الأخير على عنقه مباشرة ، فألقى سيفه فى رعب ، صارخًا :

ـ الرحمة .. الرحمة .

نطقها بالأسبانية ، فانعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، وهو يقول :

- إذن فأنت قشتالى .

فوجئ به الرجل يلقيها بأسبانية سليمة ، وبلهجة قشتالية خالصة ، لقنه إياها الشيخ منذ نعومة أظفاره ، حتى صار يجيدها كأهلها ، فهتف مذعورًا :

- نعم .. نعم .. لقد أرسلونا لقتلكما ، قبل أن تبلغا معسكر أميركما .

التقى حاجبا (فارس) فى شدة ، قبل أن يقول فى صرامة متوترة :

- أرسلوكم لماذا ؟!

كرَّر الرجل قوله وهو يرتجف ، و (فارس) يجبره على النهوض ، قبل أن يدفعه عائدًا إلى (مهاب) ، الذى هتف به :

- لقد قيَّدت هذا بإحكام .

هتف به (فارس) :

- وينبغى أن تستمع إلى هذا جيدًا .

كانت دهشة (مهاب) بالغة ، وهو يستمع إلى القشتالى ، الذى راح يروى كل ما لديه فى استسلام تام ، حتى انتهى من حديثه ، فقال (مهاب) فى توتر :

- إذن فقد كانوا يعلمون أننا سنسعى لإنقاذ الأمير .

قال (فارس) فى حزم :

- كانوا يتوقعونه .

هتف (مهاب) :

- من الواضح أنهم لايرغبون فى الفشل قط هذه المرة ، لذا فقد أرسلوا هذا الفريق ، فى ثياب عربية أندلسية ؛ للقضاء علينا ، قبل أن نبلغ معسكر أميرنا ، و ...

قاطعه القشتالى ، وهو يغمغم :

- فرق .

استدار إليه (فارس) و(مهاب) معًا ، وسأله الأوَّل فى صرامة :

- ماذا تقول يا رجل ؟!

أجابه القشتالى :

- أقول أنهم لم يرسلوا فريقًا واحدًا .. لقد أرسلوا عدة فرق ، ومهمتها كلها أن تمنعكما من بلوغ معسكر أميركما بأى ثمن .

تبادل (فارس) نظرة متوترة مع (مهاب) ، الذى غمغم :

- عدة فرق ؟! رباه ؟ يبدو أن الأمر أكثر خطورة مما كنا نتصورّ بكثير .

ثم استدار يجذب الرجل إليه فى قسوة ، ويسأله فى صرامة :

- قل لى يا هذا .. ما الذى خططوه بشأن أميرنا بالضبط ؟! كيف سيفعلونها ؟! ومتى ؟!

هزّ الرجل رأسه فى قوة ، قائلاً :

- لست أدرى .

استلّ (مهاب) سيفه بحركة حادة ، صائحًا فى غضب :

- أخبرنى وإلا قطعت عنقك بلا رحمة .

صرخ الرجل فى رعب :

- لست أدرى .. أقسم لك .. إنهم لم يخبروننا بأى شىء .

جذبه (فارس) بدوره ، قائلاً :

- ولكنك تعرف شيئًا ما حتمًا .. لقد كنت تعلم أنكم لستم فرقة واحدة ، فماذا تعرف أيضًا .

بدا الرجل حائرًا ، خائفًا ، متوترًا ، وهو يجيب :

- لست أعلم شيئًا .. أقسم لكما .. كل ما أعلمه هو أنهم قد أرسلوا عدة فرق لإعاقتكما والقضاء عليكما ، وأن القائد (فرانشسكو) ..

بتر عبارته بغتة ، وكأنما انتبه إلى أنه سيذيع سرًّا بالغ الخطورة ، فصاح به (مهاب) :

- هيا .. أكملها .

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، وقال :

- القائد (فرانشسكو) عبر حدودكم، مع فريق من الجنود الأشداء، وهناك ثلاث فرق كاملة تنتظر إشارته عند الحدود، لتبدأ هجومها فورًا.

تبادل (مهاب) و(فارس) نظرة أخرى شديدة التوتر، قبل أن يجذب (مهاب) الرجل فى غلظة، قائلاً:

- هذا كل ما نرغب فى معرفته منك.

ارتسم ذعر هائل على وجه الرجل، عندما بدأ (مهاب) يقيِّده فى إحكام، إلى جوار زميله الذى لم يستعد وعيه بعد، وهتف فى رعب:

- ولكننى أخبرتكما بكل ما طلبتماه.. لا تقتلانى.. أتوسَّل إليكما.

أجابه (مهاب) فى صرامة:

- ومن قال: إننا سنقتلك ؟!

حدَّق الرجل فى وجهه بذهول، وهو ينهض متجهًا إلى جواده، وهتف خلفه:

- هل. هل ستتركاننا على قيد الحياة ؟!

أجابه (فارس) هذه المرة فى حزم :

ـ نحن لا نريق الدماء بلا مبررٍ يا رجل .

هتف الرجل مبهورًا :

ـ رباه ! أأنتم حقًا بهذا الكرم والسماحة والقوة ؟!

لم يجب أحدهما هذه المرة ، فهزّ رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ ألهذه الصفات خسرتم (قرطبة) ؟!

التفت إليه (فارس) ، وشرد بصره بضع لحظات ، وهو يستعيد دروس الشيخ القديمة ، قبل أن يجيب فى حزم صارم :

ـ لو كنا كلنا بهذه الصفات حقًا ، لما خسرنا شبرًا واحدًا من (الأندلس) كلها يا رجل .

قالها ، وتبادل نظرة صامتة حازمة مع (مهاب) ، قبل أن يثب كل منهما على صهوة جواده ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ثم ينطلقان مواصلين طريقهما ، وقد

أدركا أن هدف القشتاليين لا يقتصر على الأمير وحده ..

إنه هدف أكبر ..

أكبر بكثير ..

* * *

« كيف ستفعلها ؟! »

ألقى الأمير الشاب سؤاله على القشتالى (روشيلو)، داخل خيمته الكبيرة ، فابتسم (روشيلو) فى سخرية ، وهو يتحسَّس نصل سيفه ، قائلاً :

ـ لاتشغل نفسك بهذا أيها الأمير .. كل شىء سيسير على ما يرام .

قال الأمير الشاب فى عصبية :

ـ أخشى أن تفعلها بحماقة ، فتتجه أصابع الاتهام كلها إلىَّ .

اتسعت ابتسامة (روشيلو) الساخرة ، وهو يقول :

ـ اطمئن أيها الأمير .. خطتنا تضمن ألا تتجه إليك أصابع الاتهام قط .

انعقد حاجبا أحد مرافقى الأمير ، وهو يسأل فى عصبية :

- ما الذى يعنيه قولك هذا ؟!

رفع إليه (روشيلو) عينين صارمتين قاسيتين ، وهو يقول :

- احتفظ بأسئلتك لنفسك يا رجل .. (روشيلو) ليس هنا ليستجوبه عربى أحمق .

هبَّ الرجل ، هاتفًا فى غضب :

- ماذا تقول أيها الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، أدار (روشيلو) سيفه فى الهواء ببراعة فائقة ، ووضع ذبابة نصله على عنق الرجل ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

- كلمة إضافية ، ويكون الثمن حياتك .

توتر الموقف كله دفعة واحدة ، فهبَّ مرافق الأمير الآخر ، وألقى نظرة عصبية على هذا الأخير ، يناشده التدخل ، فهتف الأمير الشاب فى انفعال :



قبل أن يتم عبارته ، أدار (روشيلو) سيفه في الهواء ببراعة فائقة ، ووضع ذبابة نصله على عنق الرجل .

ـ رويدك يا رجل .. نحن داخل المعسكر بالفعل .. لا تلفت انتباه الجميع إلينا .

وقال الرجل ، الذى بدأت ذبابة السيف تدمى عنقه بالفعل ، فى عصبية شديدة :

ـ بصيحة واحدة ، أستطيع أن أجلب الكل إلى هنا .

هزَّ (روشيلو) كتفيه فى لا مبالاة ، قائلا :

ـ سيكون عليك عندئذ أن تبرِّر سبب وجودى هنا ، فى خيمة أميركم الشاب ، بديلاً لأحد رجاله .

توتر الأمير الشاب بشدة ، عند هذه النقطة ، فهتف فى حدة :

ـ كفى .

واصل (روشيلو) ابتسامته الساخرة ، وهو يغوص بطرف ذبابة سيفه فى عنق مرافق الأمير ، فكرَّر الأمير الشاب فى حدة غاضبة :

ـ قلت : كفى .

بدا لحظة وكأن القشتالى سيتجاهل قوله تمامًا ، وسيغرس سيفه فى عنق الرجل بلا رحمة ، إلا أنه لم يلبث أن جذب سيفه بغتة ، وأداره مرة أخرى فى الهواء ببراعة ، قبل أن يدسه فى غمده ، قائلاً :

ـ لا بأس .

احتقن وجه مرافق الأمير ، وهو يمسح الدم عن عنقه ، صائحًا فى غضب هادر عنيف ، وهو يندفع نحو القشتالى :

ـ أيها الـ ...

قاطعه الأمير الشاب فى حدة صارمة :

ـ كفى .. كفى .

واستوقف مرافقه الغامض بيده ، وهو يقول للقشتالى فى حدة :

ـ لماذا تصرّ على إشعال الموقف بلا مبررّ .. هيا .. إنه عملك وانصرف عنا .. هيا .

ابتسم (روشيلو) فى سخرية أكثر ، وهو يقول :

ـ ليس الآن .

ثم ألقى جسده فى استهتار على فراشه ، مستطردًا :

ـ لم يحن الوقت بعد .

قالها ، وأغلق عينيه فى استرخاء شديد ، وكأنما غرق بغتة فى نوم عميق ، فتبادل الأمير ومرافقاه نظرة شديدة التوتر ، قبل أن تدور عيون ثلاثتهم نحو القشتالى ، الذى تركهم لينام ، مخلفًا وراءه عدة أسئلة غامضة ..

ومخيفة ..

للغاية ..

* * *

لم تكد شمس اليوم التالى تشرق ، حتى هبَّ (فرانشسكو) من رقاده ، ووقف يتطلَّع إلى الأفق فى اهتمام ، قبل أن يدير عينيه إلى الشمال فى شغف ، وكأنما يتوقع أمرًا ما ، فاتجه نحوه أحد رجاله ، وسأله فى حذر :

ـ ماذا ننتظر بالضبط أيها القائد ؟!

أجابه (فرانشسكو) ، دون أن يلتفت إليه :

- فرقنا .

سأله الرجل فى دهشة :

- أية فرق ؟!

تألّقت عينا (فرانشسكو) ، وهو يجيب :

- الفرق التى سنبدأ بها غزو مملكة (غرناطة) .

تراجع الرجل بدهشة عارمة ، وهتف :

- أهى حرب شاملة ؟!

التفت إليه (فرانشسكو) ، بابتسامة أشبه بابتسامة الذئاب ، وهو يقول :

- ليس بالمعنى المعروف ، ولكنها طليعة غزو .

هتف الرجل فى توتر :

- ولكن لماذا ؟! لماذا فى هذا التوقيت بالذات ، ودون أن يخبرنا أحد ؟!

رفع (فرانشسكو) أحد حاجبيه ، قائلاً فى إعجاب واضح :

- الواقع أن الخطة التى وضعها مولانا الملك هذه المرةَ عبقريةَ بحق ، فهى لاتكتفى باغتيال أميرهم ، وإنما تمتدّ إلى استغلال الاضطراب الناشىء عن هذا ، فى لحظات ذروته ، للقضاء على كل أمرائهم وفرسانهم وقادة جيوشهم أيضًا .

هتف الرجل فى انبهار :

- وكيف ؟!

أجابه (فرانشسكو) فى شغف ، وكأنما يروق له أن يروى الأمر كله :

- رجلنا (روشيلو) قابع الآن داخل معسكر أميرهم ، وعلى قيد أمتار منه ، وكل ما ينتظره هو إشارة منا ، لينقضّ عليه ، ويغتاله هناك .

سأله الرجل فى لهفة :

- ومتى نمنحه هذه الإشارة ؟!

أشار (فرانشسكو) بيده إلى الشمال ، مجيبًا :

ـ لو أننا حاولنا عبور حدودهم بجيش جرار ، لرصد جواسيسهم هذا ، ولأعدوا العدة لمواجهتنا ، ومولاى يرى أن الوقت لايناسب هذا ، لذا فقد استبدل بالمواجهة الشاملة المباشرة وسيلة أكثر حكمة .

صمت لحظة ، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة كبيرة ، مضيفًا :

ـ وأكثر فاعلية .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع بنفس الشغف :

ـ فعبر خمس مواقع مختلفة على الحدود ، وفى ثياب عربية أندلسية ، سيعبر مائة من فرساننا .. من أقوى وأشدّ وأشجع فرساننا ، بحيث لايثير عبورهم القلق أو الانتباه ، وسينوبون فى أسواق المدن ، التى يمرّون بها ، قبل أن يتجهوا جميعهم إلى هنا .

وتنهّد فى عمق ، مستطردًا :

- وعندما يظهرون من الشمال ، سنطلق إشارتنا للفارس (روشيلو) .

هتف الرجل فى حماسة :

- فيغتال أميرهم .

رفع (فرانشسكو) سبَّابته ، قائلاً فى حزم :

- سنمنحه ساعة واحدة بعدها ، للقيام بمهمته على خير وجه ، ثم يرسل هو إشارته ، وعندئذ ..

عادت عيناه تتألقان ببريق أخَّاذ ، وهو يلوِّح بيده فى الهواء فى حماسة شديدة ، متابعًا :

- سننقض انقضاضة رجل واحد على ذلك المعسكر الأندلسى ، وبدلاً من أن يتحقَّق هدفه الرئيسى ، من إحياء روح الفروسية والتضامن فى أعماقهم ، سيتحوَّل إلى مقبرة جماعية لهم .

قالها ، وأطلق ضحكة عالية مجلجلة ، جعلت الرجل يرتجف فى انبهار ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

- وماذا عن فارسهم الأبيض ؟!

تلاشى زهو (فرانشسكو) ، وذهبت ثقته دفعة واحدة ، وهو يلتفت إلى الرجل فى حدة ، هاتفًا :

- ماذا عنه ؟!

تمنى الرجل لو لم ينطق سؤاله ، وهو يغمغم فى خفوت :

- ماذا لو ...

لم يستطع إكمال عبارته ، مع نظرة (فرانشسكو) الصارمة القاسية ، فأطبق شفتيه ، واختفى خلف صمته ، فمطَّ القشتالى الضخم شفتيه ، وقال :

- لو أنه لم يلق مصرعه ، مع معلم سلاحه ، فالموت ينتظرهما الآن .

تساءل الرجل بأنفاس مبهورة :

- الآن ؟!

التقط (فرانشسكو) نفسًا عميقًا ، ثم أجاب فى صرامة متوترة :

ـ نعم .. الآن .

نطقها وهو يعى كل حرف منها ..

كل حرف ..

* * *

ما إن لاحت أسوار تلك المدينة ، مع نسمات الصباح الأولى ، حتى هتف (مهاب) بأنفاس متقطّعة لاهثة :

ـ سنتوقّف هنا لبعض الوقت .. لم يعد باستطاعتى الاستمرار .. حتى الجوادان أصابهما الإرهاق .

كان (فارس) يتمنى المضى بلاتوقّف ، إلاأن (مهاب) كان على حق ..

لا يمكنهما الاستمرار بلا راحة أو غذاء ..

حتى الجوادان لا يمكنهما هذا ..

لذا فقد توقّفا ..

ودون أن يتبادلا كلمة أخرى ، عرجا على تلك المدينة الصغيرة ، وعبرا أسوارها مع التجار والمسافرين ،

واتجها من فورهما إلى علاف جيدٍ ، تركا لديه جواديهما ، وربَّت (فارس) على عنق جواده ، قائلاً للرجل :

- امنحهما أفضل رعاية ممكنة .. نريدهما عند عودتنا نظيفين ، منتعشين ، وبطناهما ممتلئتان دون إسراف ، حتى يمكنهما مواصلة الرحلة .

غمغم الرجل فى احترام ، شأن من يدرك معنى اهتمام الفارس بجواده :

- اطمئن أيها الفارس .. سأمنحهما أفضل ما لدى .

ربَّت (فارس) على عنق (رفيق) مرة أخرى ، قبل أن يتجه مع (مهلب) إلى خان قريب ، وهذا الأخير يقول فى إرهاق :

- كم أرغب بشدة فى الاغتسال ، وتناول وجبة دسمة ساخنة .

حاول (فارس) أن يبتسم ، وهو يقول :

- الوجبة الدسمة الساخنة لن تكون مشكلة فى الخان ،

أما بالنسبة للاغتسال ، فأظن وقتنا لا يكفى لمثل هـذه الرفاهية .

هتف (مهاب) معترضًا :

- رفاهية ؟! إننى أظن أن رائحتى قد تصاعدت ، حتى أخشى أن يفقد كل رواد الخان وعيهم ، فور دخولنا إليه .

ضحك (فارس) بصدق ، وهو يقول :

- ليس إلى هذا الحد .

هتف (مهاب) :

- إذن فسيفرغون ما فى بطونهم فحسب .

انطلقت ضحكة (فارس) عالية هذه المرة ، وربَّت على ظهر معلمه فى قوة ومـودَّة ، فابتسم (مهـاب) بدوره ، و ...

وفجأة ، ارتطم به ذلك الضخم ..

رجل ضخم الجثة ، غليظ الملامح ، يرتدى ثيابًا أندلسية بسيطة ، توحى بأنه تاجر صغير ، أو مزارع قديم ..

ولقد ارتطم ذلك الضخم بـ (مهاب) فى عنف ، على نحو كاد يسقط هذا الأخير أرضًا ، فهتف به (فارس) فى غضب :

- احترس فى سيرك يا رجل .

استدار إليه الضخم فى شراسه واضحة ، وهو يهتف به :

- هل تسبنى أيها الشاب ؟!

لم يكد ينطق العبارة ، حتى انتبه (فارس) إلى لكنته القشتالية ، التى تختفى وراء حديثه بالعربية ، فوثب إلى الخلف فى سرعة ورشاقة ، واستلَّ سيفه فى لمح البصر ، وهو يصرخ :

- احترس يا معلمى .. إنه فخ .

لم تكد صرخته تنطلق ، حتى وثب ذلك الضخم الغليظ إلى الخلف ، فى نفس اللحظة التى برز فيها اثنا عشر رجلاً قويًا ، من نهايتى ذلك الشارع الضيق ، الذى يضمّ الخان ..



استدار إليه الضخم في شراسة واضحة ، وهو يهتف به :
ـ هل تسبني أيها الشاب ؟!

وبحركة واحدة قوية ، استل الكل سيوفهم فى آن واحد ..

كان فخًا محكمًا ولا شك ..

اثنا عشر رجلاً قويًا ، فى مواجهة فارسين بلغ منهما التعب والإرهاق مبلغه ، فى شارع ضيق ، ليس له من مخرج آخر ..

وكان هذا يعنى أن الدماء ستراق أنهارًا ..

حتمًا .

★ ★ ★

٤ـ الدم العربى ..

شعر الملك (فرناندو) بتوتر يسرى فى كيانه ، وهو يتطلّع إلى الأفق الجنوبى ، الذى تطلّ عليه شرفة حجرته ، ومطّ شفتيه فى ضيق ، وهو يغمغم :

ـ المفترض أن يكون كل شىء على أهبة الاستعداد للنهاية الآن .

تطلّعت إليه الملكة (إيزابيلا) فى شىء من السخرية والبغض ، قبل أن تسأله فى هدوء مستفز :

ـ هل تتوقّع أن تنجح خطتك هذه ؟!

أجابها فى سخرية عصبية :

ـ هل تتوقعين منى أن أرسل أفضل فرسانى إلى التهلكة ؟!

قالت بنفس الهدوء المستفز :

- يمكننى أن أتوقَّع أى شىء منك .

استدار إليها بحركة حادة ، أوحت بأنه سينفجر فى وجهها غاضبًا ، إلا أنه ، وبدلاً من هذا ، تمتم فى عصبية :

- سنرى .

كان يشعر برغبة عارمة فى كأس ممتلئة ، إلا أنه كان يدرك كم سيغضبها هذا ، وكم سيدفعها إلى الثورة ليوم كامل على الأقل ، وهى تنصحه بألا يتناول أية مسكرات فى الصباح الباكر ، فروَّح بيده ، وكأنما يزيح رغبته هذه جانبًا ، ويقول فى توتر :

- لو أن فارسهم الأبيض قد نجا من الفخ الأوَّل ، فهو يسقط الآن حتمًا فى الكمين التالى .. الرجال سيحيطون به ، وبمعلم سلاحه الكهل ، ويهاجمونهما بمنتهى العنف والشراسة .

قالت (إيزابيلا) ، وكأنها تتعمَّد استفزاز مشاعره :

- إنك تتحدَّث عن أقوى رجلين ، فى (الأندلس) كلها .

قال فى حدة :

ـ بل أتحدَّث عن أقوى فرسان قشتالة .

هزَّت رأسها ، وهى تنهض ، قائلة :

ـ مازلت أرى أن الانتصار على الأندلسيين ، لن يتأتى بهذه الوسائل الساذجة .

ابتسم فى سخرية عصبية ، وهو يقول :

ـ ما ترينه أنت سذاجة ، يبدو لى أسلوبًا مبتكرًا ، لن يخطر ببالهم قط ، فاغتيال أميرهم سيربكهم حتمًا ، ولو لبضع ساعات ، وتوجيه ضربة قاصمة إلى كبار قادتهم ، وفرسانهم ، وكل أمرائهم ، خلال تلك الساعات ، سيعنى قصم ظهرهم دفعة واحدة ، ومن المؤكَّد أن هذا سيكون كبير الأثر ، فى المواجهة الشاملة ، التى ستحدث فى غضون أيام ، من نجاح ضربتنا هذه .

تطلَّعت إليه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن تقول فى خفوت :

ـ أتعشّم أن يفلح هذا .

أجابها فى صرامة :

ـ سيفلح .

رمقتـه بنظـرة ساخرة ، ثم استدارت لتغادر جناحه كلـه ، فتابعهـا هو ببصره ، حتـى اختفت ، ثم عـاد يتطلّع إلى الأفق الجنوبى ، متمتمًا :

ـ سترين .

نطقها ، وفـى أعماقـه كـان هنـاك تسـاؤل ضخـم ، يتسلّل ليملأ كيانه كله رويدًا رويدًا ..

تُرى هل تم القضاء على الفارس الأبيض ومعلمـه الآن ؟!

هل ؟!

* * *

فجأة ، انقض ثلاثة عشر فارسًا قشتاليًا قويًا علـى (فارس) و(مهاب) ، بكل عنف ووحشية وشراسـة الدنيا ..

وبكل قوتهما ، صدَّ الفارسان الأندلسيان الهجوم ..

كان قتالاً عنيفًا رهيبًا ، لم تشهده شوارع تلك المدينة الأندلسية الصغيرة فى تاريخها قط ..

السيوف التقت بمنتهى القوة ..

والعنف ..

والإصرار ..

(فارس) و(مهاب) ألصق كل منهما ظهره بظهر الآخر ، وهما يضربان ويقاتلان بكل قوتهما ، والضربات تنهال عليهما من كل صوب ..

ومن المؤكَّد أنه موقف لم يواجهه معلم السلاح وقائد الفرسان ، منذ سقوط (قرطبة) ..

أما (فارس) ، فلم يتدرَّب حتى على موقف بهذا العنف ..

لقد كان يصدّ سيفًا بسيفه ، ثم يضرب صاحبه بقدمه ، وهو يستدير ليصدّ ضربة سيف آخر ، فى نفس الوقت

الذى ينحنى فيه فى سرعة ؛ ليتفادى طعنة سيف ثالث ..

وعلى الرغم من هذا ، فالضربات كانت تأتى من كل صوب بلا انقطاع ..

صحيح أن سيف (مهاب) قد أطاح بقشتالى ، وقطع عنق ثان ، ومزّق ساعد ثالث ، إلا أنه تلقّى طعنة فى ذراعه اليسرى ، وضربة نصل فى جانبه ، وأخرى كادت تغوص فى كتفه حتى عظامه ..

(فارس) أيضًا لم يسلم من طعنة فى فخذه ، وثانية فى كتفه ، وثالثة تفاداها فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن تطيح بعنقه ، وسيفه ينتزع روح قشتاليين ، ويشجّ رأس الثالث ..

ولكن حتى هذا لم يوقف الضربات القادمة من كل صوب ، ولا الدماء العربية الأندلسية ، التى سالت تمتزج بالدماء القشتالية ، فى ذلك الشارع الضيق ، المفضى إلى الخان ..

والعجيب أن أهل البلدة الصغيرة اكتفوا بمتابعة مايحدث ، في خوف وانزعاج ، دون أن يجرؤ أحدهم على التدخل لمنعه ، أو الاقتراب منه ، بأى حال من الأحوال ..

وبصوت لاهث ، خفضه التعب والتهالك ، إلى حد مدهش ، هتف (مهاب) :

ـ الخان .. أسرع إلى الخان ..

راح كلاهما يضرب بسيفه ، ويصد الضربات ، وهما يتراجعان وسط صليل السيوف وعنفها ، وصاحب الخان يهتف بهما في ذعر :

ـ لا .. لاتدخلا .. سيتحطم الخان .. أرجوكما .

ولكن (فارس) و(مهاب) تجاهلاه تمامًا ، وهما يثبان داخل الخان ، و(مهاب) يهتف بصوت مختنق :

ـ أغلق الباب .. أسرع .

كان القشتاليون السبعة يضربون بسيوفهم كالوحوش ، ويلقون كل ثقلهم على الباب ، في محاولة لاقتحامه ،

و(مهاب) يصد هجومهم بسيفه ، بضربات أودعها آخر ما تبقَى له ، من قوته وإصراره ، حتى يمنح (فارس) فرصة إغلاق الباب الخشبى الكبير فى وجوههم .

ولم يضع (فارس) لحظة واحدة ، فى سبيل تحقيق هذا ..

لقد دفع الباب بكل قوته ، لينقذ (مهاب) من هذه المواجهة العنيفة ، و ...

وفجأة ، صرخ صوت قوى ، بلغة عربية ، ذات لهجة قشتالية واضحة :

- ابتعدوا .

وكان من الواضح أنها خطة متفق عليها مسبقًا ، فلم تكد الصرخة تنطلق ، وسط صليل السيوف ، حتى تراجع القشتاليون السبعة بحركة واحدة سريعة ، ليفسحوا الطريق أمام قشتالى ثامن ، يعتلى سقف المنزل المواجه للخان مباشرة ..

وبحركة غريزية ، رفع (مهاب) عينيه إلى ذلك القشتالى الثامن ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما رأى ذلك القوس فى يديه ، والسهم المصوَّب إليه ..

وفى نفس اللحظة ، أطلق القشتالى سهمه ..

وتحرَّك (مهاب) بمنتهى السرعة ، محاولاً الإفلات من ذلك السهم القاتل ، و ...

ولكن هيهات ..

لقد اصطاد السهم هدفه ، وغاص فى صدر (مهاب) .. مباشرة ..

* * *

« وهل ستفعلها الآن ؟! »

ألقى الأمير الشاب سؤاله ، على مسامع القشتالى (روشيلو) ، فى عصبية زائدة ، فابتسم هذا الأخير ، وهو يدس سيفه فى غمده ، قائلاً :

ـ ولماذا العجلة ؟!

هتف الأمير الشاب ، فى عصبية أكثر :

ـ لأن الانتظار يكاد يقتلنى .

رمقه (روشيلو) بنظرة ساخرة مستهترة ، قبل أن يميل نحوه ، قائلاً فى برود مستفز :

ـ ينبغى أن تعتاد الصبر أيها الأمير ، فلكل شىء وقته المناسب تمامًا .. الضربة التى يمكن أن تربح بها بعد ساعة واحدة ، قد تصبح سبب هلاكك ، لو قمت بها الآن .

قال أحد مرافقى الأمير فى عصبية :

ـ ولكن الفرصة تبدو مواتية الآن .. كلنا سنخرج للصيد مع الأمير (ابن الأحمر) ، وهناك ألف وسيلة ، لجعل الأمر يبدو كحادثة صيد .

ارتفع حاجبا (روشيلو) ، فى دهشة ساخرة ، وهو يقول :

ـ حادثة صيد ؟! ومن ذا الذى يرغب فى أن يبدو الأمر كحادثة صيد ؟!

تبادل الأمير ومرافقوه نظرة دهشة ، قبل أن يهتف المرافق الثانى ، فى لهجة عصبية حذرة :

ـ ولكننا كنا نتصورَّ أن ..

قاطعه (روشيلو) ، فى صرامة مباغتة :

يا للسخافة ! عندما يخرج أمير (غرناطة) للصيد ، سيحيط به فرسانه وقادته إحاطة السوار بالمعصم ، وسيسعون لحمايته والذود عنه بحياتهم ، وسيصبح مجرَّد الاقتراب منه أمرًا محفوفًا بالخطر ، بخلاف ما سيصبح عليه الأمر ، عندما يعود بصيده ظافرًا ، ويأوى إلى خيمته ، طلبًا للاسترخاء والراحة ، وينشغل الكل فى إعداد ما تم صيده ، لحفل الشواء فى المساء .. عندئذ تكون الأعصاب كلها مسترخية ، و ...

سحب سيفه بحركة سريعة ، وضرب به الهواء مضيفًا فى شغف وحشى :

ـ وعندئذ نضرب ضربتنا .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة أخرى ، تفيض

بالقلق والتوتر هذه المرة ، قبل أن يتمتم أحد مرافقى الأمير :

- تدبير رائع .

أعاد (روشيلو) سيفه إلى غمده فى حركة بارعة سريعة أخرى ، وهو يقول فى ثقة عجيبة :

- عظيم .. هيا بنا إذن نلحق بركب الأمير .. لاينبغى أن ينتظرنا طويلاً .

قالها ، وغادر الخيمة الكبيرة ، تاركًا الرجال الثلاثة خلفه ، وقد غلفهم صمت ثقيل ، لم يلبث الأمير الشاب أن قطعه ، وهو يسأل مرافقيه فى توتر شديد :

- ما انطباعكما ؟!

اندفع أحدهما يقول فى عصبية :

- لست أشعر بالارتياح أبدًا .

سأله الأمير فى سرعة ولهفة :

- لماذا ؟!

بدا الرجل شديد العصبية ، وهو يجيب :

ـ أسلوبه الساخر الصارم هذا يقلقنى جدًا .

هتف الآخر فى حدة :

ـ إنه يوحى إلىّ بأنه لن يكتفى بالأمير .

امتقع وجه الأمير الشاب ، وهو يقول فى شىء من الارتياع :

ـ ماذا تعنى ؟!

هتف الرجل فى حدة أكثر :

ـ ربما يسعى للتخلُص منا أيضًا .

اتسعت عينا الأمير الشاب فى رعب ، وهو يقول بصوت مختنق مبحوح :

ـ هل تعتقد هذا حقًا ؟!

قبل أن يجيب الرجل ، برز وجه (روشيلو) داخل الخيمة ، وهو يقول فى صرامة آمرة :

ـ هيا .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة مذعورة هذه المرة ، إلا أنهم أطاعوه فى خضوع واستسلام عجيبين ، وانضمَّ أربعتهم إلى موكب الأمير ، وثلاثة منهم لاينبسون بحرف واحد ..

لقد ملأ الخوف قلوبهم ..

وفاض ..

بشدة ..

* * *

لم يكد (فارس) يلمح ذلك السهم ، وهو يغوص فى صدر (مهاب) ، أستاذه ومعلمه الأوَّل ، حتى انطلقت من حلقة صرخة قوية ، حملت كل انفعاله وغضبه وثورته ، وهو يجذب قائد الفرسان السابق بعيدًا عن الباب ، الذى دفعه بجسده كله ، ليغلقه فى وجوه القشتاليين ، قبل أن يعاودوا هجومهم ، وهو يصرخ بصاحب الخان :

ـ المزلاج يا رجل .. المزلاج ..

انقضَّ القشتاليون على الباب ، وراحوا يضربونه بكل قوتهم ، فى محاولة لاقتحام المكان ، فى حين ظلّ صاحب الخان واقفا ، يحدّق فى (فارس) ببلاهة ، وكأنما لايفهم مايعنيه ، فصرخ بتوتر أكبر ، وهو يدفع الباب بكل قوته :

- المزلاج يا رجل .. أسرع .. أحضر المزلاج .

انتفض الرجل ، وكأنما انتزعته صرخة (فارس) الثانية من حلم عميق ، ثم وثب يختطف مزلاج الباب الخشبى ، ودفعه فى مكانه ، ثم تراجع مرة أخرى ، منتظرًا ماسيأمره به (فارس) ، الذى اندفع نحو (مهاب) ، وهو يهتف :

- لاتجعلها النهايةَ يا إلهى .. أرجوك .

رفع (مهاب) يده فى ضعف ، قائلاً :

- السهم لم يقتلنى يا (فارس) .

أمسك (فارس) السهم ، هاتفًا فى انفعال :

- حمدًا للّه .. حمدًا للّه .

صاح به (مهاب) :

ـ إياك أن تفعلها .. لو نزعت السهم ، سيمزّق رأسه المعدنى جسدى أكثر ، وستنزف دمائى بعنف ، حتّى تسيل معها حياتى كلها .

هتف به (فارس) :

ـ ماذا ينبغى أن أفعل إذن ؟! ماذا ينبغى أن أفعل ؟!

استدار (مهاب) إلى صاحب الخان ، يسأله بأنفاس لاهثة ، من شدة الألم :

ـ أيوجد طبيب فى بلدتكم هذه يا رجل ؟!

أجابه الرجل فى توتر شديد :

ـ بالطبع ، ولكن كيف سيمكننا استدعاؤه ؟!

اقترنت كلماته الأخيرة بجلبة واضحة ، فى الطابق العلوى ، فهتف به (مهاب) ، على الرغم من إرهاقه وآلامه :

ـ قل لى يا رجل : هل أغلقت نوافذ الطابق العلوى بإحكام .

شحب وجه الرجل بشدة ، وهو يجيب مذعورًا :

ـ كلاً .

لم يكد (فارس) يسمع جوابه هذا ، حتى التقط سيفه ، وانطلق نحـو درجات السلم الخشبية ، التى تقود إلـى الطابق الثانى ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

فى الطابق الثانى ، فاجأه قشتالى ، يتسلَّل عبر النـافذة ، فانقضَّ عليه بكل قوته ، وهو يطلق صرخة قتالية قويـة ، فوثب القشتالى إلى الداخل ، وهو يشهر سيفه بدوره ..

والتقى السيفان بمنتهى العنف والقوة ..

وارتفع الصليل بنفس الشدة ، فى الخان كله ، وعلى نحو جعل صاحبه يرتجف ، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ رباه ! لقد فعلوها .. لقد تسلَّلوا إلى الداخل .

قال (مهاب) فى صعوبـة ، وهو يقـاوم غيبوبـة عنيفةً ، تقاتل للسيطرة على كيانه كله :

ـ هو لهم .

في نفس اللحظة ، التي نطق فيها كلمته هذه ، كان القشتالي يتراجع مرغمًا ، على الرغم من قوته وعنفوانه ، أمام ضربات (فارس) ، التي حملت كل انفعاله وغضبه ، لما أصاب أستاذه ومعلمه ، فأتت أشبه بصواعق ، تنقض بلا رحمة أو هوادة ..

وفي الوقت ذاته ، حاول قشتالي آخر التسلُّل عبر النافذة ، ولكن ضربات (فارس) ، التي بلغت أدق قوتها وعنفها ، أجبرت الأول على التراجع ، حتى ارتطم بزميله عند النافذة ، وهويا معًا إلى الخارج ..

وقبل حتى أن يرتطم جسداهما بالأرض ، كان (فارس) يندفع لإغلاق النافذة بإحكام ، ثم يسرع إلى أخرى في الخلف ، ويُحكم إغلاقها أيضًا ، قبل أن يقفز في درجات السلم ، هابطًا إلى حيث ترك (مهلب) ، فصاح به صاحب الخان فور رؤيته ، محاولاً أن يعلو بصوته على صوت الطرقات العنيفة ، التي نشأت عن غضب القشتاليين في الخارج ، ومحاولتهم المستميتة لاقتحام المكان :



ولكن ضربات (فارس) التي بلغت أدق قوتها وعنفها ، أجبرت الأول على التراجع ، حتى ارتطم بزميله عند النافذة ، وهويا معًا إلى الخارج .

- زميلك يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وثب (فارس) عبر درجات السلم المتبقية ، وهو يهتف :

- لا .. مستحيل !

كان (مهلب) قد سقط بالفعل ، فى تلك الغيبوبة العميقة ، وبدا واهيًا شاحبًا ، تتلاحق أنفاسه فى سرعة مخيفة ، فهتف (فارس) :

- رباه ! لابد أن نفعل شيئًا .. لابد .

قلب صاحب الخان كفيه فى حيرة ، فهتف به (فارس) فى انفعال :

- ألا يوجد مدخل آخر لهذا الخان ؟!

هزّ الرجل رأسه نفيًا ، فى توتر شديد ، ثم ارتفع حاجباه بغتة ، وامتدت سبّابته إلى الأمام ، على نحو يوحى بأنه قد تذكّر شيئًا مهمًا ، ويوشك على الإفصاح عنه ، و ...

وفجأة ، وثب ذعر مباغت إلى ملامحه وصوته ، وهو يهتف :

ـ رباه ! هل تشمّ هذا .

لم يكد ينطقها ، حتى انتبه (فارس) إلى رائحة الخشب المحترق ، التى تسلّلت إلى المكان ، و ...

وبرزت ألسنة اللهب بغتة ، من أسفل الباب الخشبى الضخم ..

وبكل رعب الدنيا ، صرخ صاحب الخان :

ـ لقد فعلوها .. لقد أشعلوا النيران فى المكان .

حدّق (فارس) فى ألسنة اللهب لحظة ، ثم لم يلبث أن هبّ واقفًا ، وجذب الرجل إليه فى عنف ، صائحًا فى وجهه :

ـ أين ذلك المخرج الآخر يا رجل ؟ أين ؟!

صرخ الرجل فى رعب :

ـ لن يمكنك هذا .. لن يمكننا هذا قط .. إنهم ينتظروننا فى الخارج .

صرخ (فارس) فى وجهه ، بكل الغضب :

ـ أين هو ؟!

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، وهو يشير بسبَّابته إلى أعلى ، مجيبًا بصوت محتقن :

ـ فى السقف .

رفع (فارس) عينيه فى سرعة ، إلى حيث يشير الرجل ، ولمح ذلك الغطاء المربع فى السقف ، لفتحة لم يدر سببًا منطقيًا لصنعها ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدرس كيفية الوصول إليها ، قبل أن يهتف بالرجل ، الذى بدأ يسعل فى قوة ، من الدخان ، الذى راح ينتشر فى المكان على نحو مخيف :

ـ استخدم بعض الماء حتى لا تنتشر النيران .

هتف به الرجل فى ذعر يائس :

ـ ليس لدى مخزونًا كافيًا منها .

لم يتوقَّف (فارس) ليسمعه ، وهو يعدو إلى الطابق الثانى ، ثم يدفع قطعة خشب كبيرة ، لتستند إلى حاجزه ، ويثب إليها ، ليبلغ تلك الفتحة فى السقف ..

لم يكن الوصول إليها سهلاً ، ولكن الشاب كان يتميَّز بقدر هائل من الحزم والإصرار ، ورثهما عن والده الراحل ، كما أن تعليمه وتدريبه صنعا منه مقاتلاً شرسًا ، لايتراجع قط ، مهما كانت المصاعب والمتاعب ..

لذا فقد وثب إلى ذلك الغطاء ، وتعلَّق بحلقة معدنية كبيرة ، مثبتة في السقف ، على نحو يوحى بأنها تستخدم لتمرير حبل سميك ، ثم دفع الغطاء بذراعه اليسرى في قوة ، قبل أن يدفع جسده بكل قوته ، ليعبر تلك الفتحة في السقف ، في نفس اللحظة التي غمر فيها الدخان المكان كله تقريبًا ، وهتف صاحب الخان ، وهو يكاد يختنق :

ـ أسرع يا فتى .. أسرع بالله عليك ..

أصبح (فارس) على السطح بالفعل ، مع نهاية الهتاف ، فامتشق حسامه مرة أخرى ، وانطلق يعدو نحو مقدِّمة المكان ، و ...

« ها هو ذا .. »

انطلقت صيحة القشتالي الثامن بغتة ، عندما لمح

(فارس) ، من موضعه فوق سقف المنزل المقابل ، قبل أن يرفع قوسه وسهمه فى سرعة ، ليصوِّبهما إليه ..

ولكن (فارس) لم ينتظر السهم ..

لقد كان يعلم أنه هناك سبعة قشتاليين مسلحين ومتحفزين ، فى ذلك الشارع الضيق ، أمام الخان مباشرة ..

ولكن معلمه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

ويحتاج إليه ..

بشدة ..

لذا فهو لم يتردَّد لحظة واحدة ..

لقد أطلق صرخته القتالية ..

ووثب ..

وفى قلب الشارع الضيق ، هبط ، فى مواجهة سبعة من القشتاليين الأقوياء ..

ولو أنه فعل هـذا ، قَبل ثانية واحـدة ، من هتاف القشتالى الثامن وتحذيره ، لكان له عامل المفاجأة ، وزمام المبادرة ..

ولهذا ثمنه بالتأكيد ..

ولكنه ، والحال هكذا ، وجد نفسه فى مواجهة سبعة من العمالقة ، تأهّبوا تمامًا لمواجهته ..

وفى لحظة واحدة تقريبًا ، أطلق السبعة صرخة قوية مخيفة ، ثم انقضوا انقضاضة رجل واحد على الفارس ..

فارس (الأندلس) .

* * *

٥ ـ الفارس ..

بكل ذرة فى كيانه ، وهو يصدّ بسيفه ذلك الهجوم الرهيب العنيف ، تمنى (فارس) لو يظهر (فهد) فجأة ، كما اعتاد فى كل ظروف مماثلة ..

تمنى لو يسمع صرخته القوية الهادرة ، وهو يبرز بغتة ، كأنما انشقّ عنه العدم ليضرب الصدور والأعناق بسيفه البتّار ، الذى لايُبقى ولا يذر ..

فوفقًا لأية معايير معروفة ، ولقواعد العقل والمنطق ، ولما يحدث بالفعل ، كان من المستحيل أن ينتصر (فارس) هذه المرة ..

لقد كان يصدّ ضربات السيوف السبعة بكل قوته بصعوبة ، والقشتاليون يطبقون عليه بالفعل ، على الرغم من أنه قد أسقط واحدًا منهم ، وأصاب الثانى ، فى حين كان الثامن على السطح يتحيّن الفرصة ، ليرديه قتيلًا بسهمه ، و ...

وفجأة ، انطلقت تلك الصرخة القوية الهادرة ..

وانتفض جسد (فارس) فى عنف ..

فالصرخة لم تكن تحمل صوت (فهد) ..

أو حتى ما يشبهه ..

بل إنها لم تكن صيحة رجل واحد ..

لقد كانت صيحة عربية ، أندلسية ، خالصة ، تحمل هدير فريق من شباب البلدة الصغيرة ، أدرك أخيرًا طبيعة وهوية مايحدث ، فاندفع يذود عن فارسه ، ضد أعدائه ..

وفى لحظة واحدة ، اخترق سهم عربى عنق القشتالى على السطح ، فى حين انقضّت عشرات السيوف العربية على القشتاليين السبعة الآخرين ، فى الشارع الضيق ..

وفى ارتياح ، هتف (فارس) :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

اندفع نحوه شاب أندلسى ، هاتفًا :

- معذرة يا سيِّدى .. لقد تأخَّرنا فى الذود عنك ، ولكننا كنا نتصوَّر فى البداية أنه قتال بين بعض السادة ، الذين اختلفوا حول سيِّدة جميلة ، أو حفنة من الذهب ، كما يفعل بعض الأمراء فى أيام عديدة هنا ، حتى هتف ذلك القشتالى الوغد بهتافه منذ قليل ، بلغته الأصلية .. عندئذ أدركنا طبيعة ما يحدث فهبَّ الكل للدفاع عنك .

هتف به (فارس) ، وهو يشير إلى باب الخان الذى اشتعلت فيه النيران :

- أنقذوهم .. أنقذوهم باللَّه عليكم .

كان القشتاليون السبعة يتساقطون كالذباب ، أمام جيش السيوف العربية الغاضب ، حتى إن الثلاثة الذين تبقوا على قيد الحياة منهم ألقوا سلاحهم ، صارخين فى ذعر :

- إننا نستسلم .

أحاط بهم فريق من شباب (الأندلس) ، يقيِّدهم فى

إحكام ، فى حين تآزر الآخرون فى حماسة ، لإطفاء النيران المشتعلة فى باب الخان ، و(فارس) يهتف :

- افتح يا رجل .. لقد سيطرنا على الموقف .

ثم التفت إلى أحد الشباب ، مستطردًا :

أحضر طبيبًا بالله عليك .. بسرعة .

لم يمض على هتافه هذا دقائق عشر ، حتى كان (مهاب) يرقد على فراش وثير ، فى الطابق العلوى للخان ، وطبيب البلدة يفحص جراحه فى اهتمام بالغ ، قائلاً :

- أحسنتم كثيرًا بترك السهم فى موضعه .. هذا أنقذ حياته تقريبًا .. إنه قوى البنية ، وكل ما يحتاج إليه ، بعد تطهير جراحه وتضميدها ، هو بعض النوم والراحة ، وسيتعافى خلال أسبوع على الأكثر .

أمسك (فارس) يد الطبيب فى قوة ، قائلاً :

- افعل ما بوسعك من أجله .

ابتسم الطبيب ، وهو يقول :

ـ اطمئن .

ثم استطرد ، وهو يتطلّع إلى الدماء ، التى تجمّدت على ثوبه ، فى قلق :

ـ جراحك أيضًا تحتاج إلى تضميد وتطهير .

قبل أن تنفرج شفتا (فارس) بأى قول ، فتح (مهلب) عينيه بغتة ، وقال فى صوت خافت ضعيف ، ولكنه حمل حزم وإصرار العالم كله :

ـ الأمير .

ربّت (فارس) على كتفه ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ أنت عندى أكثر أهمية من أمراء العالم كله .

أمسك (مهاب) أصابعه فى قوة ، واعتمد عليها ليرفع نصفه العلوى عن الفراش قليلاً ، وهو يقول :

ـ خطأ .. ليس هذا ما علمتك إياه .

قال الطبيب ، محاولاً تهدئته :

- رويدك يا سيِّد (مهاب) .. جسدك لن يحتمل هذا الانفعال .

ولكن (مهاب) تابع فى صرامة :

- الأمير هوٍ (الأندلس) ، و(الأندلس) فوق كل شىء .. هل تتذكر ما قلته لك فى صباك ؟! (الأندلس) فوق المشاعر ، والعواطف .. فوق البشر والأشخاص .. فوق كل شىء .

واحتقن وجهه ، وهو يضيف ، بآخر ما تبقَّى من قوته :

- (الأندلس) .

نطقها ، وهو جسده على فراشه ، وهو يلهث بشدة ، فربَّت (فارس) عليه ، فيِ قلق واهتمام ، إلا أن (مهاب) عاد يمسك أصابعه ، قائلاً فى حزم ، لا يتناسب أبدًا مع علامات الضعف ، البادية على ملامحه :

- تجنَّب الطرق المباشرة والأساسية .. من الواضح أنهم ينتظرونك فى مدينة أخرى ، خلال مسيرتك .. هذا

سيكلفك ساعة زائدة ، ولكنه سيوفر وقت الدخول فى اشتباكات عنيفة أخرى .

غمغم (فارس) :

ـ سأفعل .

بذل (مهاب) جهدًا خارقًا ، ليرفع جسده عن فراشه شبرًا واحدًا ، ويهتف فى حزم ، امتقع معه وجهه بشدة :

ـ ماذا تنتظر إذن ؟!

انعقد حاجبا (فارس) فى حزم ، واعتدل جسده بغتة ، فى وقفة قوية ممشوقة ، واستدار إلى الطبيب ، قائلاً :

ـ اعتن به جيدًا .

ثم اندفع بغتة خارج الحجرة ، وهبط فى درجات السلم بقفزتين كبيرتين ، ليغادر الخان كله ، ويعدو نحو ذلك العلاف ، الذى ترك عنده الجوادين ، وألقى إليه كيسًا من النقود ، وهو يقول فى حزم :

- واصل اعتناءك بالجواد الآخر ، حتى أعود .

ووثب على صهوة (رفيق) ، وأمسك معرفته بقوة ، صائحًا :

- هيا ..

وبقوة واضحة ، رفع الجواد قائمتيه الأماميتين ، وضرب بهما الهواء ، وهو يطلق صهيلاً قويًا ، وكأنما يعلن سعادته باستعادة نشاطه ، قبل أن ينطلق كالعاصفة ، ليشق طريقه إلى الخارج ..

إلى الهدف ..

وعلى متنه ، غمغم (فارس) ، وكأنما يكمل حديثه مع العلاف :

- هذا لو قدّر لى أن أعود .

نطقها ، وكأنما يستطلع لوح قدره ..

أو قدر (الأندلس) ..

كلها ..

* * *

التقط (فرانشسكو) نفسًا عميقًا، وهو يتطلَّع إلى الأفق، قائلاً:

- لقد تأخروا .. الشمس توشك على المغيب، وكان المفترض أن يظهروا، بين لحظة وأخرى.

غمغم أحد رجاله:

- ماذا لو...

قاطعه فى صرامة غاضبة:

- لاتنطقها.

أطبق الرجل شفتيه فى خوف، فاستدار (فرانشسكو) إلى رجل آخر، قائلاً بلهجة آمرة حازمة:

- استعد لإطلاق الإشارة.

قال الآخر فى سرعة:

- أنا مستعد أيها القائد:

هزَّ (فرانشسكو) رأسه بلامعنى، قائلاً:

- عظيم.

ثم أشار إلى الرجل الأوّل ، مستطردًا :

ـ اقترب .

أسرع إليه الفارس ، فمال على أذنه ، قائلاً فى صرامةً :

ـ هناك أمر آخر ، أراده مولاى (فرناندو) أن يظلَّ قيد الكتمان ، حتى اللحظات الأخيرة ، وسوف أسرّ به لك ؛ لأن مولاى أمرنى باختيار الفارس ، الذى يتولّى ذلك الأمر .

هتف الرجل فى حماسة :

ـ أنا رهن إشارة مولانا (فرناندو) أيها القائد .

قال (فرانشسكو) :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة ، استمع إلىّ جيّدًا ، ونفذ ما سأطلبه منك بمنتهى الدقة ، ودون لحظة واحدة من التردُّد .

مال الفارس نحوه أكثر ، فتابع فى حزم وحشى :

- عندما ينتهى كل هذا ، سيعود إلينا فارسنا (روشيلو) ، وسوف أنتحى به جانبًا ، بعيدًا عن أنظار الرجال ، وكأننى أهنئه بما أنجزه ، وعندئذ أريد منك أن تتسلّل من خلفه ، و ...

صمت لحظة ، تألّقت خلالها عيناه بكل شراسة الدنيا ، وهو يضيف :

- وتقتله .

انتفض جسد الفارس فى قوة ، مع معنى الكلمة وأسلوب نطقها ، وتراجع بحركة حادة غريزية ، فاعتدل (فرانشسكو) على جواده ، واستعاد حزمه وصرامته ، وهو يقول :

- هل بقدرتك أن تفعلها ؟!

هتف الفارس ، وهو يمسك مقبض سيفه :

- بالتأكيد أيها القائد .

تألّقت عينا (فرانشسكو) مرة أخرى ، وهو يقول :

- عظيم .

لم يكد ينطقها ، حتى هتف أحد رجاله فى حماسة :

ـ ها هم أولاء .

استدار (فرانشسكو) بحركة حادة ، وسرت فى جسده كله موجة انفعال جارفة ، عندما رأى الفرق القشتالية تأتى من الأفق ، فهتف :

ـ أطلقوا الإشارة .

وكان هذا إيذانًا ببدء الخطوة الأخيرة من الخطة ..

خطة اغتيال الأمير ، وبداية الغزو ..

غزو ما تبقى من (الأندلس) ..

* * *

« ما هذا ؟! »

هتف أحد فرسان الأندلس ، فى معسكر الأمير (ابن الأحمر) بالعبارة فى دهشة عارمة ، وهو يشير إلى سهم مشتعل ، شقَّ السماء لمسافة كبيرة ، قبل أن يسقط فى قوس واسع ، فانعقد حاجبا قائد الفرسان ، وهو يقول فى قلق شديد :

- نعم .. ما هذا ؟! وما الذى يعنيه ؟!

هزَّ الأمير (ابن الأحمر) كتفيه ، قائلاً :

- يبدو لى أن أحدهم قد ضلَّ طريقه ، ويحاول جذب الأنظار إليه .

غمغم قائد الفرسان :

- أتعشَّم أن يقتصر الأمر على هذا .

ثم أشار إلى ثلاثة من فرسانه ، قائلاً فى صرامة :

- اتركوا كل شىء ، وامتطوا خيولكم ، واذهبوا لاستطلاع هذا الأمر .

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها الفرسان الثلاثة لتنفيذ الأمر ، كان (روشيلو) يقف أمام خيمة الأمير الشاب ، متطلّعًا إلى السماء ، التى غلبت ظلمتها ضوءها ، مع مغيب الشمس ، ومتمتمًا فى خفوت شديد ، وبلهجة حملت انفعال فارس مقبل على معركة حاسمة :

- إنها الإشارة .

نطقها ، ودار على عقبيه ، بأسلوب عسكرى حازم ، ودلف إلى الخيمة ، حيث استقبله أحد مرافقى الأمير الشاب ، وهو يقول فى عصبية :

- متى سيتم تنفيذ مهمتك ؟! الانتظار يزيد الموقف سوءًا ، ويكاد يلتهم أعصابنا فى قسوة .

تلفَّت (روشيلو) حوله ، وهو يتجاهل سؤاله تمامًا ، قائلاً :

- أين زميلك والأمير ؟!

أجابه الرجل فى عصبية :

- سيحضران بعد لحظات .. إنهما يتشاوران فى الخارج ، حول بعض الأمور المهمة .

ابتسم (روشيلو) ، وهو يسحب سيفه ، قائلاً :

- عظيم .. هذا سيجعل الأمر أكثر يسرًا .

اتسعت عينا الرجل ، وهو يتراجع بحركة حادة ، ويسحب سيفه بدوره ، هاتفًا فى حدة :

- أيها الـ ...

وثب (روشيلو) نحوه ، وانطلق سيفه بضربة قوية بارعة ، قبل أن يكمل مرافق الأمير سحب سيفه ..

واتسعت عينا الرجل فى ألم وذعر واستنكار ، عندما غاص نصل سيف القشتالى فى صدره ، واخترق قلبه فى عنف ، جعل جسده كله ينتفض انتفاضة واحدة ، ثم يسقط جثة هامدة ..

وفى نفس اللحظة ، التى جذب فيها القشتالى سيفه ، من صدر الرجل ، دلف الأمير ومرافقه الآخر إلى الخيمة ، فاتسعت عينا الأوّل فى رعب ، وهو يحدّق فى مرافقه الأوّل ، الغارق فيِ بركة من دمائه ، فى حين جذب الثانى سيفه ، هاتفا :

ـ خيانة .

قفز (روشيلو) نحوه ، وهو يهتف فى وحشية :

ـ المفترض فى موقف كهذا ، ألا يلتقى سيفانا قط .

قالها ، فى نفس اللحظة التى هوى فيها سيفه ، ليبتر كف الرجل ، الممسكة بسيفه ، ثم يرفعه بسرعة مدهشة ،

ليضرب به عنقه ، قبل أن يدور في رشاقة ، ليضع سيفه على عنق الأمير الشاب ، الذى جحظت عيناه في رعب هائل ، ومرافقه الثاني يسقط عند قدميه جثة هامدة ، وهتف بصوت مختنق :

- ولكن لماذا .. لماذا ؟!

أجابه (روشيلو) فى سخرية :

- لقد أخبرتك أن خطتنا تضمن ألا تتجه نحوك أصابع الاتهام قط .

بكى الأمير الشاب ، وهو يقول فى ضراعة :

- الرحمة .

تابع (روشيلو) ، وكأنه لم يسمعه :

- فلا أحد يتهم قتيلاً بالقتل .

اختنق صوت الأمير الشاب فى حلقه ، وهو يقول باكيًا :

- لايمكنك أن تفعل هذا .. بيننا عقد .

ارتفع حاجبا (روشيلو) فى دهشة ساخرة مصطنعـة، وهو يهتف :

ـ عقد .. هذا سيستلزم أن تشكونا لقاضيكم إذن .

ثم غرس السيف فى عنقه ، مضيفًا فى قسوة :

ـ فى العالم الآخر .

أطلق الأمير الشاب حشرجة مخيفة ، وهو يرفـع يديـه إلى عنقه ، محاولاً منـع الدماء ، التى تدفّقت منـه فـى غزارة ، فسحب (روشيلو) سيفه ، وهو يقول فى لامبالاة وحشية المعنى :

ـ هيا .. مت أيهـا الأميـر .. لاتضـيع الوقـت فـى محـاولات عقيمـة للنجـاة ؛ فلا أحد ينجو مـن سيف (روشيلو) قط .

أطلق الأمير الشاب ثلاث حشرجات أخرى ، والمـوت يحيط به فى سرعـة ، مع كل قطـرة دم يفقدها ، فـى حين التقط (روشيلو) عباءة أحد المرافقين الصرعى ، ومسح به نصل سيفه ، متابعًا :

- وبالنسبة لنا ، انتهت الخطوة الأولى من المهمة كالمقدَّر لها تمامًا ، وبقيت الخطوة الثانية .. والحاسمة .

وأعاد سيفه إلى غمده ، مضيفًا فى حزم :

- أميركم .

شدّ قامته ، والتقط جعبته ، وأخرج منها علبة مخملية بالغة الأناقة ، حملها فى عناية ، وهو يبتسم فى سخرية ، قائلاً :

- أراهن على أن هديتنا ستروق له كثيرًا .

حمل الهدية المزعومة ، وغادر خيمة الأمير الشاب ، واتجه فى خطوات واسعة واثقة متماسكة ، إلى خيمة (ابن الأحمر) ، فاستوقفه قائد الفرسان عندها ، وهو يسأله فى صرامة :

- إلى أين يا رجل ؟!

أجابه (روشيلو) فى هدوء ، وهو يضع الهدية أمامه :

- أنا أحد مرافقى الأمير (ابن الراضى) ، وأحمل منه هدية إلى مولاى (ابن الأحمر) .

تطلّع قائد الفرسان إلى العلبة الصغيرة فى اهتمام قلق ، فمال عليه أحد فرسانه ، يهمس :

- لقد رأيته بالفعل ، بصحبة الأمير (ابن الراضى) .

أومأ قائد الفرسان برأسه متفهمًا ، ثم أشار إلى (روشيلو) ، قائلاً فى صرامة :

- لا أحد يدخل لمقابلة الأمير ، وسيفه فى غمده .

التقط (روشيلو) سيفه ، وسلمه إلى أحد الفرسان ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

- آه .. معذرة .

كان يبدو هادئًا واثقًا ، فالتقط الفارس سيفه ، فى حين قال قائد الفرسان بنفس الصرامة :

- انتظر ، حتى أحصل على الإذن من مولاى الأمير .

غاب داخل الخيمة بضع دقائق ، وقف (روشيلو) خلالها هادئًا باسمًا ، يحمل هديته المزعومة فى صبر وأناة ، حتى برز قائد الفرسان ، قائلاً :

- ادخل يا هذا .

كان الأمير (ابن الأحمر) يجلس على أريكة وثيرة، فى مواجهة مدخل الخيمة تمامًا ، ولقد أشار إلى القشتالى ، قائلاً :

- تقدَّم يا ولدى .

سار قائد الفرسان إلى جوار (روشيلو) ، الذى اتجه نحو الأمير مباشرة ، وانحنى أمامه ، قائلاً :

- مولاى الأمير (ابن الراضى) يرسل تحياته يا مولاى ، ويرسل لسموك هدية متواضعة ، بمناسبة بدء رحلة الصيد .

ثم فتح العلبة المخملية الأنيقة ، والتقط من داخلها خنجرًا شديد التميُّز ، متابعًا :

- خنجر من البرونز المطلى بالفضة ، ومقبضه محلًّى بالذهب والياقوت والزمرد .

ابتسم الأمير (ابن الأحمر) ، وهو يقول :

ـ هدية جميلة يا ولدى ، وإن كنت أتساءل : فيم يمكن أن يُستخدم خنجر كهذا .

أجابه (روشيلو) بابتسامة كبيرة :

ـ إجابة بسيطة .

ثم وثب فجأة ، يغرس الخنجر فى صدر قائد الفرسان ، صائحًا بلغته الأم :

ـ فى القتل يا مولاى .

شهق قائد الفرسان ، من فرط المفاجأة والألم ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فى حين هبَّ الأمير (ابن الأحمر) من مجلسه ، هاتفًا :

ـ خيانة .

ولكن (روشيلو) لم يضع لحظة واحدة .

لم ينتظر حتى سقوط قائد الفرسان ..

فالهدف الرئيسى للعمليه كلها ، صار على قيد متر واحد منه الآن ..



ثم وثب فجأة ، يغرس الخنجر في صدر قائد الفرسان .

لذا ، فقد انتزع الخنجر من صدر قائد الفرسان ، وصرخ فى صرامة وحشية :

ـ خسرتم أيها الأندلسيون .

ثم وثب منقضًا على الهدف ..

على الأمير ..

أمير (غرناطة) و(الأندلس) ..

الأخير .

* * *

٦ - .. والأندلس ..

مع آخر ضوء للشمس ، لاح المعسكر من بعيد ، لعينى (فارس) المجهدتين ، وهو يعدو مع جواده ، منذ ساعات طوال ..

وعلى الرغم مما يشعر به كلاهما ، من تعب بلاحدود ، هتف بجواده :

- ها هو ذا .. هيا .. ابذل مزيدًا قليلاً من الجهد ، وسينتهى كل شىء ، بخير بإذن الله .

مع آخر حروف هتافه ، لمح ذلك السهم المشتعل فى السماء ..

وفهم ..

ودون إضاعة لحظة واحدة ، صرخ :

- أسرع يا (رفيق) .. أسرع بالله عليك .

كان الجواد يبدو دومًا وكأنه يفهم ، ويستوعب كل تعليماته إليه ، فقد زاد من سرعة عدوه بالفعل ، على الرغم من الزبد الذى يسيل من شدقيه ، والعرق الغزير الذى غمر جسده كله ..

وراح المعسكر يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ولكن الفرسان الثلاثة ، الذين أرسلهم قائد الفرسان ؛ لاستطلاع أمر ذلك السهم المشتعل ، لمحوا (فارس) بدورهم ، ورأوه يعدو نحو المعسكر بكل قوته ، فهتف أحدهم فى توتر :

ـ ماذا يريد هذا الفارس بالضبط ؟!

صاح آخر فى صرامة :

ـ أيًّا كان ما يريده ، فلا يمكن أن نسمح له ببلوغ المعسكر بهذه البساطة .

قالها ، وجذب مقود جواده ، وانطلق مع رفيقيه ، لقطع الطريق أمام (فارس) ، الذى لم تكن لديه بالفعل لحظة واحدة يضيعها ..

وانعقد حاجبا (فارس) فى شدة ..

السهم المشتعل ، الذى رآه يشق السماء منذ لحظات ، يعنى أن لحظة الخطر قد حانت ، وأن مجرَّد توقفه ، قد يعنى مصرع الأمير (ابن الأحمر) ،وضياع (الأندلس) كلها ..

لذا فقد مال بجواده ، محاولاً تفادى المواجهة ..

ولكن الفرسان الثلاثة كانوا مصرين على اعتراض سبيله ، وبأى ثمن ..

وفى عصبية ، وعلى الرغم من إرهاقه الشديد ، أطلق (رفيق) صهيلاً غاضبًا ، وكأنه يدعوهم لإفساح الطريق ، وعدم اعتراض مهمتهم ..

وفى اللحظة نفسها ، استلَّ الفرسان الثلاثة سيوفهم ..

وخفق قلب (فارس) فى عنف ..

من الواضح أنهم مصرون على المواجهة ..

وهو لن يرفع سيفه فى وجه عربى أندلسى قط ..

هذا ما غرسه فيه الشيخ ، وما لقنه إياه معلم سلاحه ..

ولكن الفرسان أطلقوا صرختهم القتالية ، ورفعوا سيوفهم ، وانقضوا عليه ، و ...

وهنا ، انطلقت تلك الصيحة القوية الهادرة ..

وانتفض جسد (فارس) فى قوة .

إنها صيحته هذه المرة ولا شك ..

صيحة (فهد) ..

(فهد) الذى برز فجأة ، وكأنما انشقّت عنه الأرض ، واندفع بجواده الأسود الأدهم نحو الفرسان الثلاثة ، وهو يلوّح بسيفه فى قوة ..

وبحركة غريزية ، استدار الفرسان الثلاثة لمواجهته ..

وهنا ، جذب (فارس) معرفة (رفيق) صائحًا :

- الآن .. الآن يا (رفيق) .

وقفز (رفيق) ..

قفز قفزة هائلة ، لم يفعلها جواد آخر ، فى (الأندلس) كلها ، فتجاوز الفرسان الثلاثة ، وعبر فوق رءوسهم ، وكأنما تحولّ بغتة إلى طائر هائل ، أو إلى (بيجاز)(*) خرج من عالم الأساطير ، ووثب فجأة إلى عالم الواقع ..

واتسعت عيون الفرسان الثلاثة فى ذهول ، والجواد وراكبه يهبطان خلفهم ، ثم ينطلقان نحو معسكر الأمير ..

وفى اللحظة نفسها ، انقضّ عليهم (فهد) ..

وعلى الرغم من صليل السيوف العنيف من خلفه ، لم يلتفت (فارس) لحظة واحدة ، وهو يقتحم المعسكر ، ويدور فيه ببصره ، بحثًا عن خيمة الأمير (ابن الأحمر) ..

(*) (البيجاز) - أو (البيجاسوس) : حصان مجنّح ، من الأساطير الرومانية القديمة ، اعتبر رمزًا للقوة المطلقة المتمثلة فى جسد حصان ، وجناحى نسر ، ومن المؤسف أن هذا الحيوان الخرافى الرائع لا وجود له فى عالم الواقع .

وبكل عنفهم وحزمهم ، انطلق فرسان الأمير ، لمنع ذلك القادم الجديد من بلوغ خيمة أميرهم ومولاهم ..

وكان على (رفيق) أن يثبت قدراته وكفاءته هذه المرة ؛ لذا فقد راح يناور ويحاور ، ويقفز هنا وهناك ، وفارسه يقوده إلى خيمة الأمير ، قبل أن يهتف أحد فرسان (ابن الأحمر) فجأة ، فى دهشة عارمة :

- ولكن .. ولكنه (فارس) .

سمرّ قوله الفرسان فى أماكنهم ، ونقل إليهم دهشته دفعة واحدة ، فتفجّرت فى كيانهم ، وهم يحدقون فى (فارس) ، الذى يعرفونه جيدًا ، ويحفظون ما يقال عن بطولاته عن ظهر قلب ، وإن لم يلتق به معظمهم وجهًا لوجه من قبل قط ..

وفى رءوسهم جميعًا قفزت فكرة واحدة ..

لو أن (فارس الأندلس) هنا ، فهذا يعنى وجود شىء ما ..

شىء يهدد الأمير (ابن الأحمر) شخصيًا ..

والعجيب أنهم خفضوا سيوفهم جميعًا ، وأفسحوا له الطريق ، وهم يتابعونه فى انبهار كامل ..

وفى اللحظة نفسها ، وفى توافق مدهش ، تراجع (فهد) من أمام الفرسان الثلاثة ، ولوى عنق جواده ، وانطلق يعدو مبتعدًا عنهم ، وكأنما انتهت مهمته بتعطيلهم ، ومنح (فارس) فرصة بلوغ معسكر الأمير ..

أما (فارس) نفسه ، فلم يكد جواده يبلغ خيمة الأمير ، حتى وثب هو عن صهوته ، واندفع يقتحم الخيمة ، و ...

ورأى القشتالى (روشيلو) ينقضّ على الأمير (ابن الأحمر) وقائد الفرسان ملقى أرضًا ، والدماء تغطى صدره وذراعه اليسرى ..

وبوثبة هائلة مدهشة ، بلغ (فارس) موضع (روشيلو) ، وقبض على معصمه بأصابع من فولاذ ، هاتفًا :

ـ خسرت يا هذا .

من المؤكَّد أنها كانت مفاجأة بالغة للقشتالى ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، انحنى بسرعة مدهشة ، ودار حول نفسه فى براعة ولكم (فارس) بمرفقه فى جانبه ، هاتفًا :

ـ ليس بعد .

ثم انزلق فى خفة ؛ ليفلت من قبضة (فارس) ، مستطردًا :

ـ آه .. أنت فارسهم المغوار إذن .

وثب (فارس) إلى الخلف فى رشاقة ، وهو يستلّ سيفه ، ويهتف بالأمير فى الوقت ذاته :

ـ ابتعد يا مولاى .

انحنى (روشيلو) فى سرعة ، يختطف سيف قائد الفرسان المصاب ، وهو يقول :

ـ دعه يبتعد الآن .

ثم هوى بالسيف على (فارس) ، مستطردًا :

- وسيظفر به رجالنا بعد حين .

التقى سيفاهما ، فى مبارزة عنيفة ، وتعالى صليلهما قويًا عنيفًا ، والأمير (ابن الأحمر) يراقبهما فى توتر بالغ ..

كان من الواضح أن القشتالى قوى وماهر للغاية ..

ولكن (فارس) أيضًا لم يكن بالمقاتل الهيّن ..

لذا فقد طالت مبارزتهما ، واحتدّت ، وقادتهما إلى خارج الخيمة ، وقد انهمكا فيها تمامًا ، حتى لم يشعر القشتالى ، أو حتى (فارس) أن فرسان الأمير قد اكتفوا بمراقبتهما ، وصنعوا بأجسادهم دائرة واسعة حولهما ..

ومن بعيد ، لمح (فرانشسكو) ما يحدث ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى عصبية :

- ماذا حدث هناك ؟! يبدو أنهم قد ظفروا بـ (روشيلو) ، بعد أن أجهز على أميرهم !

قال الرجل الواقف إلى جواره فى توتر :

- ولكن لماذا يقاتله أحدهم فقط ؟!

أجابه (فرانشسكو) فى صرامة :

- هذه عاداتهم . يتصوَّرون أنه من الكرامة والشرف ألا يتكاثروا على خصمهم ، وأنه من الفروسية أن يتنازلوا واحدًا لواحد ..

غمغم الرجل :

- يا لحماقتهم !

ثم عاد يسأل ، فى حيرة قلقة :

- ولكن ماذا ينبغى أن نفعل ؟! (روشيلو) ليست لديه الفرصة لإرسال إشارته ، ولسنا ندرى ما إذا كان قد قتل أميرهم أم لا .

عاد حاجبا (فرانشسكو) يلتقيان ، وهو يقول :

- ولكن الكل منشغل بالمبارزة .. ولو أننا استغللنا هذا ، أيًا كانت الأحوال ، فسيكون هجومنا مباغتًا فعَّالاً ، خاصة وأنهم يجهلون أننا هنا .

سأله الرجل فى توتر :

ـ هل تعنى أننا ..

قاطعه بكل صرامة ، وهو يجذب عنان جواده :

ـ سنهاجم الآن ، مستترين بالظلام .. هيا .

وفى نفس اللحظة ، التى بدءوا فيها زحفهم ، نحو معسكر الأمير ، كان (روشيلو) يضرب سيف (فارس) فى قوة ، هاتفًا :

ـ بضربات ضعيفة كهذه ، وجسد مثخن بالجراح كهذا ، لست أظن أنه أمامك فرصة للفوز يا صاح .

كرَّ عليه (فارس) بضرباته القوية فى عنف ، وهو يهتف :

ـ وبوجودك منفردًا ، وسط أقوى فرساننا ، لست أظن أنه لديك أدنى فرصة للنجاة ، مهما كان ما ستنتهى إليه مبارزتنا يا هذا .

أطلق (روشيلو) ضحكة عالية ساخرة ، وهو يصدّ ضربات (فارس) بسيفه ، هاتفًا :

واهم أنت أيها الأندلسى .. أمهلنا دقائق معدودة فحسب ، ولن أصبح منفردًا هنا ، بل سـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، شقّ السماء المظلمة بغتة سهم مشتعل ، ثم أعقبه ثان .. وثالث .. ورابع .. وخامس ..

وعلى ضوء تلك الأسهم المشتعلة ، ظهر القشتاليون ، وهم يعدون نحو المعسكر وبكل قوته ، صرخ كبير الفرسان :

ـ هجوم .

لم تكن صرخته حتى قد اكتملت ، عندما اندفع فرسان (الأندلس) إلى خيولهم ، وقفزوا على صهواتها ، وانطلقت منهم صيحات قتالية عالية ، وهم يسحبون سيوفهم ، وينطلقون للتصدّى للهجوم القشتالى الغادر ..

وبكل حماسته ، هتف (فارس) :

ـ إنه (فهد) .

وعلى عكس حماسته الزائدة ، التى صنعها الموقف المفاجئ ، التقى حاجبا (روشيلو) فى توتر ، وراح يتراجع نحو خيمة الأمير ، وقد بدا له أن الخطة كلها قد تهاوت وانهارت بغتة ، فصاح به (فارس) وقد أدرك ما يعتمل فى نفسه :

ـ استسلم أيها القشتالى .. أبق على حياتك ، مادمت قد خسرت معركتك .

هتف به (روشيلو) فى مرارة ، لم يعد فيها أدنى أثر لسخريته المعهودة :

ـ حياتى ؟! وهل تظن أن حياتى هذه ستعنى شيئًا لمليكى ، إذا ما عدت إليه مدحورًا ؟!

صاح (فارس) ، وهو يكرّ عليه مرة أخرى :

ـ ابق معنا إذن .. إننا نحسن معاملة أسرانا .

هتف (روشيلو) فى غضب :

ـ هراء .

ثم انحنى بغتـة ، ودار حول نفسه ، وتفادى سيف (فارس) ، ليهوى عليه بسيفه ، بكل مـا تبقّى فى كيانه من قوة وأمل ، و ...

وجحظت عينـاه عـن آخرهما ، وهو يطلق شهقة قوية ، وجسده ينتفض فى عنف بالغ ..

فمع دورته المعقّدة ، انحنى (فـارس) فى براعـة مدهشة ، ساعدته على تفـادى طعنـة السيف القشتالى ، قبل أن يندفع سيفه العربى الأندلسى ، ليطعن طعنته الأخيرة ..

الطعنة التى اخترقت صدر (روشيلو) وقلبه ، وواصلت طريقها فى جسده ، ليبرز السيف من ظهره ..

وفى توتر ، اعتدل (فارس) ، قائلاً :

ـ أنت أجبرتنى على هذا .

ثم سحب سيفه من جسـد القشتالى ، الذى حدّق فيه لحظة بذهول مستنكر ، والدمـاء تتدفّق مـن بين شفتيه غزيرة ..

وهوى جثة هامدة ، عند قدمى (فارس) ..

وأخيرًا ، التقط (فارس) نفسًا عميقًا ، وأطلقه فى شكل زفرة حارة ملتهبة تكاد تشعل بلهيبها ألف مصباح ..

ومع زفرته ، برز الأمير (ابن الأحمر) من خيمته ، قائلاً بوجه شاحب :

ـ مرة أخرى تنقذ حياتى يا (فارس) .

كان (فارس) يقف على قدميه بصعوبة ، أو ربما بتأثير كرامته فحسب ، إلا أنه لم يكد يلمح الأمير ، حتى انحنى نصف انحناءة ، وقال فى حماسة :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك يا مولاى .

هزَّ الأمير رأسه ، وربَّت على كتفه فى اعتزاز وتقدير ، ثم أدار عينيه يتطلَّع إلى فرسانه وأمرائه ، وهم يطاردون القشتاليين ، الذين اندحروا وذاقوا هزيمة منكرة ، على عتبة معسكره ، وتنهَّد فى عمق وارتياح ، وهو يربّت على كتف (فارس) مرة أخرى ..

فبالنسبة إليه ، كان يعتقد .. بل ويؤمن بأنه لو كان كل الغرناطيين على شاكلة هؤلاء ، لما كان النصر بعيدًا ، ولما ضاعت (الأندلس) ..

ولكنه احتفظ بإيمانه هذا فى أعماقه ، واعتبره سره الكبير ..

سر أمير (الأندلس) .

الأخير ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

10

فارس الأندلس

من البطولات العربية

فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

سر الأمير

- ما الخطة التى وضعها القشتاليون هذه المرة ، للظفر بمملكة (غرناطة) ؟!
- كيف يمكن أن يبرز أمير خائن ، فى قلب (الأندلس) العربى ؟!
- تُرى ما دور (فارس) و (مهاب) و (فهد) هذه المرة ؟! وكيف يكشفون (سر الأمير) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وعش عبق التاريخ مع الفارس ..(فارس الأندلس) ...

الرواية القادمة ذهب الأندلس



الثمن فى مصر ٢٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم